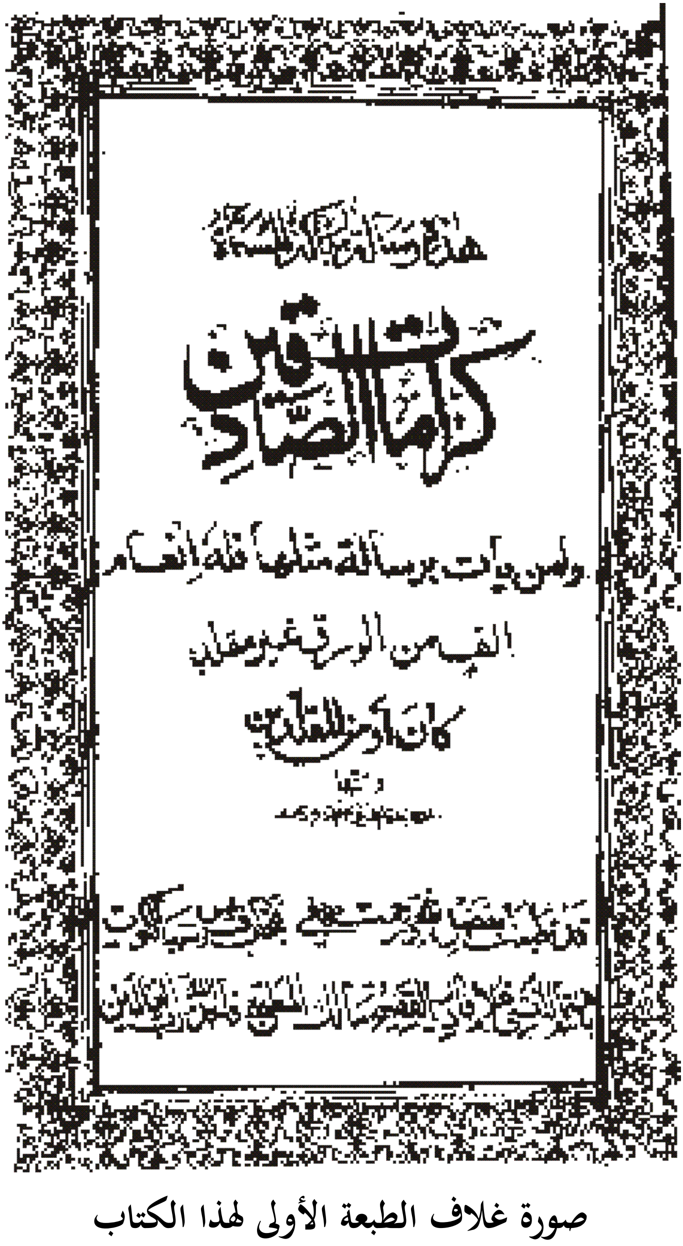


صورة غلاف الطبعة الأولى لهذا الكتاب

فهرس

كلمة الناشر	أ
التنبيه	١
رسالة	٣
القصيدة الأولى في نعت الرسول ﷺ	٣٧
القصيدة الثانية	٤٠
القصيدة الثالثة المباركة الطيبة في نعت رسول الله ﷺ	٥٧
القصيدة الرابعة	٦٤
تفسير سورة الفاتحة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾	٧٣
﴿الحمد لله﴾	٧٤
﴿رب العالمين* الرحمن الرحيم* مالك يوم الدين﴾	٧٩
﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾	٩٠
﴿اهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾	٩٣
إتمام الحجة على المكفرين من العلماء والمشايخ كلهم أجمعين	١٢٨
***رسالة لسيدنا نور الدين** رضي الله عنه	١٣٣

* ملحوظة هامة: هذا العنوان والذي يليه من وضع الناشر لتمييز كلام المسيح الموعود عليه السلام عن كلام المولوي نور الدين رضي الله عنه وكلام السيد محمد سعيد الطرابلسي رضي الله عنه.

قصيدة لسيدنا نور الدين رضي الله عنه ١٣٦
قصائد وتقريظات ورؤيا للسيد محمد سعيد الشامي ١٣٧

التنبيه

أيها المكفِّرون الذين أصرّوا على تكذيبي، وهمّوا بتمزيق جلابيبي، اعلموا.. هداكم الله.. أن هذه الرسالة معيارٌ لتنقيد أمري وأمركم، فإن كنتم لا تتناهون عن سبّكم، ولا تخافون قهر ربّكم، وتظنون أنكم أعلام الشريعة، وأشياخ الطريقة، وعلماء الملة، وفضلاء الأمة، فأْتوا برسالة من مثله إن كنتم صادقين. وإن لم تفعلوا.. ووالله لن تفعلوا.. فاتقوا الله الذي تُرجَعون إليه، واتقوا نارا تأكل أحشاء المجرمين.

ووالله إني ما ألّفت هذه الرسالة إلا لكسر نخوتكم، وإطفاء شعلة رعونتكم، وكنت أطيق على رؤية ذلّتي ومساغ غصّتي، ولكني أردت أن أُظهر كيفية علمكم على المنصِفين. فنثلتُ كنانتي، وقضيت من دُرر البيان لُبانتي، فإن ناوحتم وأتيتم بكلام من مثله فلكم الألف بل أزِيدُ عليه عشرين درهما للغالبين.

ووالله إني ما أرى فيكم إلا إجبال القرائح وإكداء الماتح والمائح، وما أرى عندكم من ماءٍ مَعين. وأعجبني أنكم.. مع كونكم خاوي الوفاض من المعارف الدينية.. تستكبرون ولا تستحيون، ولا تنتهجون محجة المتقين. فوالذي بعثني لإلزامكم وإفحامكم، لقد سألتُ الله أن يحكم بيني وبينكم، ويوهن كيد الكاذبين. وما عرضت عليكم درهمًا ودينارًا إلا اختبارًا، فإن ناضلتموني تفسيرا ونظما، فهو لكم حتما.

واعلموا أن الله يُخزيكم، ويُرِي الخَلْقَ جهلكم، ويريكم ما كنتم تكذبون وتستعلون مستكبرين.

وقد نظمت هذه القصائد بارتجال من غير انتحال، في بلدة "عَنْبَرْسَر، وكان ثَمَّ مُشاهدِي حزبٌ من المسلمين. ولكني أمهلكم إلى شهرين من وقت إشاعة هذه الرسالة، وأرقب ما تجيبون.. أتُولّون الدُّبر أو تكونون من المناضلين؟

إن شيخ "البطالة" دعاني غضبانَ، فنهضت إليه عجلانَ، وقلت: قُمْ قُمْ، إني أتيت الآن، ودانَيتُه بالمصباح المتّقد، ولكني أعلم أنه من قوم عمين.

وهذه رسالة قد أُودِعتْ دقائقَ القرآن، وضُمّخت بطيب العرفان، وسيق إليه* شِربٌ من تسنيم الجِنان، وسَفَرتْ عن مرأى وسيمٍ، وأَرَجِ نسيمٍ، وتراءتْ بوجهٍ حَسِين. لمعاتُها أَزْرأتْ بالجُمان، وصَلِيَت القلوب بالنيران، وهيّجت البلابل في صدور المعاندين. وكتبتُها لئلا يبقى للجدال مطرح، ولا للمِراء مسرح، وليتبين الحق وليستبين سبيل المجرمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* *يبدو أنه سهو الناسخ، والصحيح: "إليها". (الناشر)*

رسالة

لمن يأت بمثلها فله إنعام ألف من الورق*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وتتباعد الأفكار عن فهم كُنْهِه تباعُدَ الليل من النهار، الذي دَعَا الناسَ بالقرآن ورسوله المصطفى إلى مأدبة الجَفَلَى من أهل الحضارة والفلا، والصلاة والسلام على حبيبه محمد خاتم النبيين وفخر المرسلين، الذي جاء بالحجج والبراهين، وأسعفَ الناسَ بحاجاتهم ويَمَّمَ إصلاحَ العالمين. فكم مِن مُحلِّقٍ إلى الهوى دخَل في الروحانيين، وكم من ذي لسان سليط وغيظ مستشيط صار من المهذَّبين المطهَّرين. اللهم فصَلِّ على هذا الرسول النبيّ الأُمّيّ الذي فاق الرسلَ كلهم في كمالاته، وحاز كل فضيلة في سِيره وصفاته، وألّف بين قلوب أمم كانوا يُداجون ولا يُخلِصون، وأصلح قوما كانوا يشركون ولا يوحّدون، وطهّر أُناسًا كانوا يفجُرون ولا يتّقون، ويُنيخون مطايا نفوسهم ولا يسيرون في سبل الله ولا يتيقّظون.

وكان (ﷺ) أُمِّيًّا لم يقرأ شيئا من علوم الدنيا والدين، وبلغ أشده في قوم أمّيّين وعمين، ولم ير (ﷺ) وجهَ العالِمين العارِفين. بل لم يرُمْ عن وِجاره، ولا ظعَن عن إلفه وجاره، ومع ذلك سبق العالِمين والعالَمين

* *الكلمات التي تحتها الخط ترجمة لعبارة وردت هنا بالأردية. (الناشر)*

في عقله وعلومه وبركاته وفيوضه وأنواره، حتى غمرت مواهبُ هدايته المشارقَ والمغارب والأجانب والأقارب، وأطال كلٌّ ذي ذيل ذيلَه إلى بركاته، وامتدت أيدي الناس إلى إفاداته وخيراته. فأرى الناسَ سبل السلام، ونجّاهم من المسالك الشاغرة وطرق الظلام، وطهّرهم من شُعب النفاق والشقاق، والنزاع والمشاجرة وسِيَرِ اللئام. وبصَّر العيونَ، وأحسن الظنون، ونجَّى المسجون، حتى ألقى في روع الناس الاستسلامَ، وثبّط جذباتِ كُفرهم وثبّت الأقدامَ، ونشّطهم إلى الثبات والاستقامة وأقام، فأبصروا ورأوا سبلهم ومنازلهم وتخيَّروا المناخ، ووردوا الوِردَ النُّقاخَ، وزُكُّوا ومُحِّصُوا وطُهِّروا حتى سُمُّوا خيارَ الناس، وخُلِّصوا من كل نوع النعاس، وكُمِّلوا في العِلم الباطني والخبر الروحاني إلى أن أَترعوا بالمعروف الأكياس، وحصحص فيهم نورٌ ينير الناس، وبُدّلت شِيمهم وقرائحهم، ونُوِّرَت نفوسهم ونُشرت مدائحهم. واعتلقوا بالنبي الكريم اعتلاقَ الأثمار بالأعواد، ولَوَوا أعنّتَهم من طرق الفساد إلى مناهج السداد، حتى وصلوا منازل القرب والمحبة والوداد، وبلغوا وانتهوا إلى كمالات قدّرها الله للعباد.

فالحمد لله الذي هدى عباده بهذا الرسول النبي الأمي المبارك وأحيا به العالمين.

[1]أما بعد فليكن واضحا أن الله ﷻ يتوجه بحسب سنّته التي لا تتبدل إلى تأييد هذه الأمة المرحومة عند كل غلبة للظلام، ويبعث عبدًا من عباده الخواص لتجديد الدين المتين للمصلحة العامة. فهذا العبد المتواضع أيضا قد بُعث من الله على رأس هذا القرن بتلقي لقب المجدد ووُهبتْ له أيضًا– لإزالة أنواع الفتن السائدة في العالم واقتلاعها وقمعها– تلك العلومُ والوسائل التي لا تتيسر لأحدٍ ما لم ترزقه العناية الإلهية الخاصة إياها. لكن المؤسف أنه كما هي سنة العلماء غير الكاملين وناقصي الفهم منذ القدم، أنّهم كلما وجدوا بعض أسرارٍ أرفع من إدراكهم وصفوا منبع هذه الأسرار دوما بأنه كافر، ولقد سلك بعض المشايخ المعاصرين أيضا المسلك نفسه، ومع أنني شرحت لهم كثيرا وبكل الأساليب من نصوص القرآن الكريم والحديث، لكن ذرةً من نور الصدق لم تصب قلوبَهم، بل على عكس ذلك أبدوا للتكفير والتكذيب حماسا كبيرا إذ لم يكتفوا بتسميتي كافرًا فحسب بل سموني أكفرَ، وأفتوا بحق مؤمن من أهل القبلة أنه سيخلد في جهنم، وقد أقسمت لهم أنا العبد المتواضع مرارا بالله الكريم بل صرحت لهم جالسا في المسجد الذي هو بيت الله أني مسلم، وأؤمن بما قال الله جل شأنه ورسوله ﷺ. إلا أن أولئك السادة لم يقبلوا وقالوا إن هذا الإقرار على شاكلة المنافقين، ولا سيما الشيخ محمد حسين البطالوي الذي أوصل عناده وتعصبه إلى الكمال وقال إنه لن يعدّني من المسلمين حتى لو

[1] من هنا إلى صفحة ٣٣ ترجمة عربية للنص الأردي الموجود في هذا الكتاب. (الناشر)

رأى الآية بأم عينه، بل سيظل يكفِّرني للأبد. قد ظهرت بعض الآيات فعلا، لكن السيد البطالوي سماها استدراجا أو تنجيما، وخدع الناس بكل طريقة ممكنة. فمن جملة تلك الخدائع قوله بحقي: "إنه جاهل تماما ولا إلمام له بالعلوم العربية مطلقا، وبالإضافة إلى ذلك هو دجال ومفترٍ لا يتلقى أي تأييد من الله". وادَّعى إتقانه للغة العربية والتمكن منها بكل اعتزاز وتباه، لكي تترسخ بذلك عظمته في القلوب. وأراد بوصف هذا العبد المتواضع جاهلا وأمّيا وغير ملمٍّ بالعلوم العربية تماما وملعونا ومفتريا أن تنغلق على العامة جميع سبل حسن الظن بي، إلا أن قدرة الله عجيبة وغريبة إذ لم يشأ في هذا الأمر أيضا أن يَظهر أي شرف أو صدق للبطالوي والمشايخ الذين هم على شاكلته. فصحيح أني في الحقيقة كالأميين، إلا أنه بمحض فضله قد أعانني في علم الأدب ودقائق القرآن الكريم وحقائقه لدرجة لا أجد كلمات تفي بغرض الشكر الإلهي. وبشَّرني بأنه إذا بارزني الشيخ البطالوي أو أحد أشياعه فسيواجه هزيمة نكراء ويهان كثيرا، ولذلك نشرت إعلانا كتبت فيه أن على السيد البطالوي أن يكتب مقابلي تفسيرا لإحدى سور القرآن الكريم باللغة العربية الفصيحة والبليغة لا يقل عن عشرة أقسام، بالإضافة إلى قصيدة في مدح النبي ﷺ باللغة العربية لا يقل عدد أبياتها عن مئة بيت، ومثل ذلك سيكون واجبا علي أيضا أن أكتب للسورة نفسها تفسيرا باللغة العربية الفصيحة والبليغة وأنظم في مدح النبي ﷺ قصيدة تضم مئة بيت، ثم إذا ثبت عند المقارنة والمقابلة أنَّ تفسير

السيد البطالوي وقصيدته أفصح وأبلغ وأتم وأكمل من تفسيري وقصيدتي فسوف أتوب عن دعواي وأوقن بأن الله ﷻ أيد البطالوي المحترم وسأحرق كتبي. أما إذا كنت أنا الغالب فسيتحتم على البطالوي الإقرار بأنه كان كاذبا محضا في أقواله هذه، ومزورا في قوله بأني مفتر ودجال وكافر وملعون، وجاهل في العلوم العربية لدرجة لا أعرف كتابة صيغة واحدة صحيحة. وكنت كتبت إلى جانب ذلك أنه إذا أعرض عن هذه المواجهة أحدٌ منا أو ألغى طريق الاختبار هذا بحجج واهية وحيل باطلة، فعليه **عشر لعنات** من الله تعالى. لكن من المؤسف أن البطالوي لم يبالِ بهذه اللعنات أي مبالاة، وأجاب- ناقضا عدة عهود ووعود بحثا عن حيلة- أنه سيلاحظ كتبي العربية أولا بنظر الاختبار هل هي خالية من السهو والنسيان أم لا، وليتأكد هل يوجد فيها أي خطأ من النحو والصرف أم لا، وإذا لم يجد فيها أي خطأ فلن يكون لديه أي مانع من كتابة التفسير مقابلي ونظم قصيدة تضم مئة بيت، لكن العقلاء أدركوا أنه اكتشف حيلة للمهرب، لأنه يعرف جيدا أن أي تأليف مبسط في العربية أو الفارسية لا يمكن أن يخلو من السهو والخطأ. والباحث عن الحيلة يمكن أن يستند إلى خطأ حتى لو كان من سهو الناسخ. ويبدو أنه ببذل قصارى الجهود؛ وعملا بالمثل الذي تعريبه "لم يجد مهربا من الموت"، قدم هذا العذر المخجل وأفرح قلبه بهذا التصرف السوقي، أنه سيحتج بالعثور على سهو واحد من الناسخ أو بظهور خطأ بالمصادفة، بأنه لما وُجد في أحد كتبك خطأٌ

فلم يبق هناك مبرر للنقاش، لكن الأسف كل الأسف أن البطالوي لم يفهم أني لا أدعي العصمة قط كما أنه ليس لأي إنسان غير الأنبياء عليهم السلام أن يدعي أنه معصوم. فالذي يؤلف الكتب الضخمة باللغة العربية أو الفارسية فمن المحتمل أن يصدر منه خطأ في النحو أو الصرف بحسب القول المشهور "قلّما سلِم مِكْثار"، ولا يتمكن من إدراك ذلك الخطأ لغفلة نظره عنه. كما من المحتمل أن يُنشر خطأ بسهو من الناسخ ولا يقع عليه نظر المؤلف بدافع النسيان البشري. فكيف تتم المقارنة بين القدرات العلمية لكلا الفريقين في هذا النقد أحادي الجانب. باختصار؛ قد تبين من مثل هذه الردود السخيفة للبطالوي المحترم يقينا أن القسّام الحقيقي لم يرزقه أي نصيب من علم التفسير وعلم الأدب، ولم يوهب لقلبه ودماغه ولسانه شيء من لوازم الإنسانية سوى ممارسة اللعن والطعن والمكر. ولهذا خطر ببالي أولا- بمشاهدة تعصباتهم من هذا القبيل- أن أُعرض عنهم نهائيا، لكنني رأيت من الحكمة لدحض الفكرة الخاطئة للعامة -بأن السيد محمد حسين البطالوي أو المشايخ المعارضون الآخرون، الذين هم على شاكلة هذا الشيخ، يتمكنون من علم الأدب وحقائق تفسير الكلام الإلهي- أن أنشر هذا الكتيب إتماما للحجة للمرة الأخيرة على البطالوي المحترم والمشايخ الآخرين من شيعته وإظهارا لحقيقة تمكُّنهم من اللغة العربية ومعرفتهم الحقائق. وليكن واضحا أن هذا الكتيب يضم أربع قصائد وتفسيرا لسورة الفاتحة. ومع أني قد نظمتُ هذه

القصائد خلال أسبوع، بل الحق أنها استغرقت سويعات فقط، إلا أني لمجرد إتمام الحجة على البطالوي المحترم والمعارضين من شيعته أنشر منذ شهر كامل إقرارا شرعيا قانونيا أنه إذا نشر كتيبه الفصيح والبليغ مقابل هذا الكتيب خلال شهر من نشره، وكان يضم أبياتا عربية بمثل عدد الأبيات في كتيبنا هذا، وتفسيرا لسورة الفاتحة بالتزام الحقائق والمعارف والبلاغة مثلما ورد في كتيبنا، فسوف **تُقدَّم له جائزة ألف روبية**. وإلا فلن يكون مسموحا له بالادعاء في المستقبل أنه أديب وعالم باللغة العربية، أو أنّ له إلماما بمعرفة حقائق القرآن الكريم. ولقد سمعت أن حزب المشايخ هؤلاء يصفونني أنا العبد المتواضع- جالسين في بيوتهم- كاذبا ودجالا وكافرا من ناحية، ومن ناحية أخرى يقولون إني جاهل مطلقا وعديم الحظ من العلم بالعربية تماما. فمن خلال هذه المواجهة يتبين ويثبت بمنتهى الوضوح هل هم كاذبون في بيانهم هذا أم صادقون. فلما كانت قلوب هؤلاء خالية من الأمانة والورع فلا أحب الآن أن أتوجه إليهم مرة بعد أخرى. ومع أنني نُهيت في كشف صريح عن مناظرة المتعصبين معوجّي القلوب، وقد نشرتُ ذلك في كتابي "**مرآة كمالات الإسلام**" إلا أن هذه المواجهة هي بقصد إظهار الآية. وأتعهد في المستقبل أيضا متمسكا بالورع والتقوى أنه إذا لم ينشر السيد محمد حسين البطالوي أو أي شيخ آخر قصائده وتفسيره مقابل قصائدي وتفسيري خلال شهر دون اللجوء إلى أي حجة أو حيلة، فسوف أُعرض عن هؤلاء القوم نهائيا. أما إذا نشر السيد

البطالوي أو أحدٌ من شيعته بصدق النية القصائد وتفسير سورة الفاتحة في صورة كتاب مقابل هذا الكتيب، فأنا أعِد بصدق القلب أنه إذا ثبت بشهادة المحكمين أن قصائدهم وتفسيرهم المحتوي على دقائق سورة الفاتحة وحقائقها، يفوق قصائدي وتفسيري المحتوي على الأسرار اللطيفة للسورة المباركة نفسها، وفي كل جانب؛ فسوف أقدم **ألف روبية** نقدا لمن نشر القصائد والتفسير في صورة كتاب خلال شهر من نشر قصائدي وتفسيري. وأتعهد أيضا أنه بعد نشرهم القصائد والتفسير مقابلي إذا ثبت أن كلًّا من قصائدهم وتفسيرهم يخلو من أخطاء نحوية وصرفية وبلاغية ويفوق قصائدي وتفسيري درجة، ثم مع كمالهم هذا إذا استخرجوا أي خطأ في قصائدي وتفسيري، فسوف أقدم لهم جائزة **خمس روبيات** أيضا مقابل كل خطأ. وليكن معلوما أن النقد سهل ويقدر عليه جاهل أيضا، لكن إظهار النكات صعب. وليكن في بالكم عند كتابة التفسير أن تقليد تفسير شخص آخر لن يُقبل، بل سيكون الجدير بالقبول حصرا ذلك التفسير الذي يضم الحقائق والمعارف الجديدة، بشرط ألا تتعارض مع كتاب الله وأقوال رسول الله ﷺ. فقد قال الله سبحانه وتعالى في مدح القرآن الكريم بجلاء أن فيه تفصيلا لكل شيء. فكيف يمكن أن يبقى أي جزء من المعارف والحقائق خارجه؟ إضافة إلى ذلك يشهد القانون الإلهي في الطبيعة أيضا على أن كل ما صدر منه- حتى لو كانت ذبابة- يُكِنّ في طياته عجائب لا حصر لها. فهل يمكن لأي مؤمن أن يقول إن تركيب

الذبابة أو البعوضة رائع لدرجة لو استمر جميع العلماء في التفكير في اكتشاف خواصها العجيبة إلى يوم القيامة، لما كان من حقهم الادعاء بأنهم اكتشفوا جميع الخواص الكامنة فيها؛ أما نصوص القرآن الكريم فتتوقف عند الأفكار السطحية فقط، لدرجة أنه يمكن لأي شيخ جاهل الادعاءُ بإلقاء نظرة عابرة عليها أنه عرف كل ما كان في القرآن الكريم. إن سنة الله ﷻ لا يمكن أن تتبدَّل. ولا يمكن أن نقول بحق أيٍّ من مخلوقاته- حتى لو كانت ورقة واحدة- أن خواصها معلومة ومحدودة، بل كل واحد من مخلوقاته يكنّ في طياته خواص غير محدودة. ولذلك يتصف كل مخلوق بكونه عديم النظير. ولو أراد العالم بأسره الإتيان بنظيره لما وسعه أبدا، كما قد قال الله ﷻ نفسه في القرآن الكريم أنه لا أحد يقدر حتى على خلق ذبابة، فما سبب ذلك؟ لأن عجائب صنع الصانع في الذبابة أيضا كثيرة لدرجة أنها تفوق قدرات البشر بل قدرات الخلق كله. فلماذا إذن يعد كلام الله منحطا وأدنى درجة من حيث خواصه وحقائقه حتى لا يساوي الذبابة درجة، أليس هذا الكلام هو نفسه الذي قال الله ﷻ بحقه: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٢]؟ بعض المشايخ الأغبياء- أخزاهم الله- يقولون إن هذا التفرد والتميز يقتصر على كونه عديم المثال في البلاغة فقط. لكن هؤلاء جهلاء جدا وعمْيان القلوب، فأي شك في كون

---

[٢] (الإسراء: ٨٩)

القرآن الكريم عديم النظير في بلاغته وفصاحته أيضا، إلا أن القرآن الكريم لم يقصد قط أن تفرده ينحصر في هذه الميزة فقط، بل يقصد ذلك الكلامُ المقدس أنه عديم النظير في جميع الصفات التي وُصف بها. وليس من الضروري أن تجتمع جميع الصفات لتجعله عديم النظير. كلا بل إنَّ كل صفة له بحد ذاتها بلغت درجة انقطاع النظير. الآن أسجل فيما يلي نموذجًا لهذا، بعضَ صفات القرآن الكريم الكاملة الواردة فيه والتي وُصف بسببها أنه عديمَ النظير، وهي: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[٣]، ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٤]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾[٥]، ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[٦]، ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٧]، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٨]، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾[٩]، ﴿إِنَّ

---

[٣] (يونس: ٢)
[٤] (الأحقاف: ٣١)
[٥] (التكوير: ٢٨-٢٩)
[٦] (الأنعام: ٣٩)
[٧] (الجاثية: ٢١)
[٨] (الواقعة: ٧٦-٨٠)
[٩] (إبراهيم: ٢٥-٢٦)

هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[١٠]، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾[١١]، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[١٢]، ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾[١٣]، ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾[١٤]، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[١٥]، ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٦]، ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾[١٧]، ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[١٨]، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١٩]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[٢٠]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[٢١]، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

---

[١٠] (الإسراء: ١٠)

[١١] (الطارق: ١٤)

[١٢] (البقرة: ٣)

[١٣] (القمر: ٦)

[١٤] (المائدة: ٤٩)

[١٥] (البقرة: ١٨٦)

[١٦] (الحاقة: ٤٩)

[١٧] (الحاقة: ٥٢)

[١٨] (التكوير: ٢٥)

[١٩] (المائدة: ١٦-١٧)

[٢٠] (الصف: ١٠)

[٢١] (النساء: ١٧٥)

نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٢٢]، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[٢٣]، ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾[٢٤]، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾[٢٥]، ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[٢٦]، ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[٢٧]، ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢٨]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾[٢٩]، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٣٠]، ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾[٣١]، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾[٣٢]، ﴿وَبِالْحَقِّ

---

[٢٢] (المائدة: ٤)

[٢٣] (الزمر: ٢٤)

[٢٤] (يونس: ٣٦)

[٢٥] (الشورى: ١٨)

[٢٦] (الرعد: ١٨)

[٢٧] (النحل: ٦٥)

[٢٨] (الحديد: ١٠)

[٢٩] (يونس: ٥٨)

[٣٠] (ص: ٣٠)

[٣١] (مريم: ٩٨)

[٣٢] (الإسراء: ١٣)

أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[٣٣]، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[٣٤]، ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٣٥]، ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[٣٦]، ﴿رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾[٣٧]، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٣٨]، ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[٣٩]، ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٤٠].

ملخص الترجمة لهذه الآيات كلها أن القرآن الكريم حكيم؛ أي زاخر بالحِكم، ويعين الإنسانَ على قطع جميع أشواط الصراط المستقيم، وهو ذكْر للعالمين أي يذكِّر كل نوع من الطبائع ويهديها إلى كمالاتها المطلوبة. وينتفع به صاحبُ كل درجة ورتبة، سواء أكان فردا من العوام أو من العلماء. فقد نزل لمن يريد أن يحقق في نفسه الاستقامةَ الإنسانية، أي أن هذا الكلام ينمي جميع فروع الشجرة الإنسانية، ويقيمها على حد الاعتدال، ويؤثر بتربيته في كل نوع من

---

[٣٣] (الإسراء: ١٠٦)
[٣٤] فصلت: ٤٢-٤٣)
[٣٥] (الشورى: ٥٣)
[٣٦] (النحل: ٩٠)
[٣٧] (الشورى: ٥٣)
[٣٨] (الشعراء: ١٩٦)
[٣٩] (البينة: ٤)
[٤٠] (الإسراء: ٨٩)

القوى الإنسانية. ليست هناك حقيقة لم يشملها، إن تعاليمه تهب البصيرة، وتري المؤمنين طريقا يتقوى به الإيمانُ، فتشملهم الرحمانية والرحيمية الإلهية، فيرتقون من الإيمان إلى درجة العرفان. ثم يقول الله ﷻ أنا أقسم بمواقع النجوم، وهو لو عرفتم قَسم عظيم، على أن هذا القرآن كتاب عظيم الشأن وأن تعاليمه لا تناقض سنة الله بل إن جميع تعاليمه مسجلة في كتاب مكنون، أي صحيفة الفطرة، ولا يكتشف دقائقَه غيرُ الذين طُهِّروا، (لقد أشار الله ﷻ بالقسم بمواقع النجوم إلى أنه كما تبدو النجوم كالنقط بسبب بُعدها الشاسع، لكنها ليست في الحقيقة كالنقط بل هي ضخمة عملاقة، كذلك يخفى القرآن الكريم عن أعين قليلي النظر لرفعته العظيمة وعلو شأنه. والذين تزول غشاوتهم يقدرون على رؤيته. وفي هذه الآية أشار الله ﷻ إلى الدقائق العالية للقرآن الكريم أيضا، التي تخص عبادَه الخواص، الذين يطهِّرهم الله ﷻ بيده. ولا يصح الاعتراض أنه إذا كان علم القرآن الكريم قد اختُص بالعباد الخواص فكيف يؤاخَذ الآخرون في حالة العصيان، ذلك لأن تعليم القرآن الكريم الذي هو مدار الإيمان سلسٌ يفهمه الكافر أيضا، وليس من شأنه أن يخفى عن أي قارئ. فلو لم يكن سلسا مفهوما لبقي نظام التبليغ ناقصا. لكن الحقائق والمعارف لما لم تكن مدار الإيمان وإنما هي تزيد المؤمن عرفانا، لذا هُدي إلى هذا الطريق الخواصُ فقط، لأنها في الحقيقة مواهب ونعم روحانية توهب لكاملي الإيمان بعد الإيمان). ثم قال إن كلمات القرآن تماثل شجرة

أصلها ثابت وفروعها ممتدة إلى السماء، تؤتي ثمارها دوما في موعدها. أي أن فطرة الإنسان السليمة تقبله. والمراد من فروعها في السماء أنه يحتوي على معارف عظيمة، تنسجم مع قانون الطبيعة. ومعنى إيتائها الثمار كل حين أنه يتمتع بتأثير روحاني دائم. ثم قال إن هذا القرآن يهدي إلى طريق قويم لا عوج فيه، وهو يلائم فطرة الإنسان تماما. ومن أعظم مزايا القرآن الكريم في الحقيقة أنه يحيط بجميع قوى البشر مثل دائرة كاملة. والمراد من الطريق القويم في الآية الكريمة ذلك الطريق الذي هو أقرب إلى فطرة الإنسان، أي إظهاره الكمالات التي خُلق الإنسان من أجلها، وتيسير تلك الطرق له التي فُطر على السلوك فيها، ووُهبت له القدرة عليه. وإنما المراد من "أقوَم" في الآية ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ هذا الصدقُ حصرا. بعد ذلك قال إن القرآن الكريم يحكم في جميع الخصومات، وهذا القول أيضا يشير إلى أنه يحتوي على جميع أنواع الحكمة الإلهية، لأن الكتاب الذي هو ناقص وخالٍ من بعض المعارف لا يمكن أن يكون قاضيا وحَكما للمخطئين والمصيبين في الأمور الإلهية بصفة عامة. بل سيعد حَكما فقط عندما يكون جامعا لجميع العلوم الحكمية. ثم قال إن هذا القرآن الكريم منزه من جميع أنواع الشك والريب، ولا يتطرق إلى تعاليمه أي شك أو شبهة؛ أي هو زاخر بالعلوم اليقينية. ثم قال إن هذا القرآن الكريم حكمة قد بلغت منتهاها، وهو يشمل جميع الكتب الإلهية، وهو يبين جميع المعارف الدينية، فهو يهدي ويقدم الأدلة على هدْيه، ثم يميز الباطل

من الحق ويذكّر الأتقياء بالمواهب الصالحة الكامنة فيهم. وتعليمه حائز على درجة اليقين، وهو ليس بخيلا في بيان الغيب، أي هو يزخر بأمور غيبية كثيرة، ولا يضم أمورا غيبية بذاتهِ فقط بل إن متبعه الصادق أيضا يمكن أن ينال الأمور الغيبية بتلقي الإلهام من الله. وهذا الفيض يخص الكتاب المقدس الذي هو ليس بخيلا، أما الكتب الأخرى مثل التوراة والإنجيل هي الآن بمنزلة البخيل، حتى لو كانت من الله؛ إذ ليس بوسع متبعهما في العصر الحاضر أن ينال منها أي نور. بل إنَّ الإنجيل يسخر من النصارى، وذلك لأن العلامات التي حددها الإنجيل للنصارى المؤمنين (أي أنهم سيشفون المرضى الذين تكون أمراضهم مستعصية- أي العميان من الولادة والمجذومين والعرج والصم- وسيحرِّكون الجبال من مكانها، وأنهم لن يموتوا بتناول السم) فهذه العلامات مفقودة في النصارى. بل إن عيسى عليه السلام بقوله" إذا كان فيكم الإيمان مثقال حبة من خردل فسوف تنجزون من الأعمال مثلي بل سوف تنجزون أكثر مني" قد أكد على أن جميع النصارى عديمو الإيمان. فلما ثبت أنه لا دين لهم فليس من حقهم أن يحاوروا أحدا في صدق الدين قبل أن يثبتوا إيمانهم؛ لأن أوضاعهم تشهد على أنهم إما ملحدون لفقدان علامات محدَّدة للإيمان فيهم، وإما قد كذب مَن حدد لهم العلامات التي لا توجد فيهم. ويثبت من كلا الاحتمالين أن النصارى بعيدون كل البعد عن الصدق وهجروه ولا نصيب لهم منه. أما العلامات التي بيَّنها القرآن الكريم لمتبعيه فهي موجودة في مئات

المسلمين؛ مما ثبت أن القرآن الكريم كلام الله الحق. أما إذا عددنا النصارى مؤمنين فهذا يستلزم الإيمان بأن الإنجيل المعاصر كلامُ شخص يريد أن يقيم جماعته استنادا إلى النبوءات الكاذبة. ولا يغيبن عن البال أنّا بهذا الخطاب لا نوجه الهجوم إلى حضرة المسيح عليه السلام، لأننا نعرف أن هذه الأمور إذا كانت من المسيح فقد كتب علامات المؤمنين. ثم إذا ترك أحدهم الإيمان فما ذنب المسيح عليه السلام في ذلك؟ بل الحقيقة أن المسيح عليه السلام قد تنبأ في حلة هذه العلامات بزمن لن يبقى فيه النصارى مؤمنين؛ أي قد قال لهم: أيها النصارى؛ إذا أتى عليكم زمن لا توجد فيكم هذه العلامات فاعلموا أنكم أصبحتم عديمي الإيمان، ولم يبق فيكم الإيمان مثقال حبة من خردل. وليس من شك في أن هذه العلامات كانت موجودة في بعض الخواص من النصارى قبل ظهور نبينا الكريم ﷺ وكانت تظهر منهم الخوارق. لكنهم حين صاروا عديمي الإيمان في زمن بعثة النبي ﷺ لعدم الإيمان بسراج الحق ذاك، ولم يبق فيهم الإيمان مثقال حبة من خردل، عندئذ ظهرتْ فيهم علامات عدم الإيمان بصفة عامة. يجب على المسلمين أن يطالبوا النصارى مرارا وتكرارا إثباتَ إيمانهم بحسب العلامات الواردة في الإنجيل للإيمان، حتى يُثبتوا أنهم مصداق ﴿أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ أي أن يُظهروا علامات الإيمان. يجب أن يُسأَلوا: إلى أي دين تدعون؟ أإلى الدين الإنجيلي الذي ورد عن معتنقيه أنهم يحظون بروح القدس، وهم يظهرون خوارق معينة؟ فإذا كنتم تدعون إلى الدين نفسه فحسنًا أظهِروا تلك

العلامات، وأَثبتوا أولا أنكم نصارى مؤمنون في الحقيقة، ثم ادْعوا الآخرين إلى الإيمان المشرق الثابت بالأدلة. أما إذا فُقدتْ علامات ذلك الإيمان فالنجاة التي تحقيقها يتوقف على الإيمان ستكون باطلة، كما هو باطل إيمانكم. ولا يمكن أن تكون ثمرة الإيمان الكاذب نجاةً صادقة، بل ستكون نجاة كاذبة لا تقي عذابَ جهنم. باختصار؛ لا يستحق أي مسيحي بوصفه مسيحيا أن يحاور، ما لم يثبت صدق إيمانه بحسب العلامات الواردة للإيمان في الإنجيل. **وأنى لهم ذلك**.

نتابع كتابة الترجمة لبقية الآيات ونقول: إن الله ﷻ يقول: إن كلًّا من القرآن والرسول نور جاءكم، هذا الكتاب يبين كل حقيقة، وأن الله يري بواسطته سبل السلام للذين يتبعون رضوان الله، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويريهم الصراط المستقيم المؤدي إليه ﷻ. هو الله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليجعل هذا الدين غالبا على الأديان كلها. أيها الناس؛ إن القرآن الكريم برهان وجدتموه من الله وهو نور مبين أُنزل إليكم، اليوم أُكمِلَ لكم الدينُ وأُتمّت عليكم جميع النعم، وانحصر رضاي في أن **تتمكسوا** بالإسلام. لقد أنزل الله إليكم كلاما كاملا ومحببا، ومن مزايا هذا الكتاب أنه متشابه، أي أن تعاليمه لا تتناقض ولا تنافي قانون الله في الطبيعة، بل إن الكمال الذي هو ضروري للإنسان من حيث فطرته وقواه، فإن تعليم هذا الكتاب يناسب ذلك الكمال نفسه، وهذه الميزة لا توجد في تعليم التوراة والإنجيل، بل قد تجاوزت التوراة حد التركيز على القسوة

والانتقام، واقتُرحت تلك القسوة بحق المطيع والعاصي والصديق والعدو، بحيث يبدو أن تعليم التوراة واجه اضطرارا نظرا لكونه لشعب معين في زمن محدد، ولأن أحكام التوراة الموافقة للقانون العام البسيط في الطبيعة لم تكن لتفيد تلك الشعوب. فمن هذا المنطلق مارست التوراة القسوة تجاه أمتها داخليا، وصار العفو والصفح كأنه حرام على اليهود، واقتلاعُ سنِّ الأخ قصاصا عُدَّ ثوابا. وفي حقوق الله أيضا فرضت تكاليف شاقة لحد لا تطاق، وتضر المعيشة والتمدن. وكذلك كانت الأوامر الخارجية للتوراة أيضا شديدة جدا إذ بموجبها دُمرت قرى المعارضين والعصاة المتمردين ومدنُهم وقُتل مئات الألوف من الأولاد كما قُتل الشيوخ والعميان والعُرج والنساء الضعيفات أيضا.

بينما عدّ العطف والرفق أكثر من اللازم والرحم والعفو في تعليم الإنجيل كأنها فريضة. وخارجيا إذا هاجم الأعداء الدينَ فالمقاومة بحسب الإنجيل حرام، حتى لو مزّقوا الفقراء والضعفاء أمام أعينهم وقتلوا أولادهم وأسروا نساءهم وأساؤوا إليهن بكل الأساليب وهدموا معابدهم وأحرقوا كتبهم. باختصار؛ حتى لو دمروا أمتهم بأي طريقةٍ كانت، لا يُسمح لهم بالدفاع. كذلك لا يوجد في الإنجيل داخليا أي عقوبة أو قانون لمعاقبة المجرم على جريمته، ومحافظة على حقوق أفراد الأمة، وإنما التركيز الشديد على الرُّحم والعفو والصفح- وإن كان أقل بكثير من أتباع مذهب الجينية- لدرجة أنْ لم يراعِ أي خلق آخر. صحيح أن تقديم الخد الثاني بعد تلقِّي اللطمة على الخد الأول قد

يكون تعليما رائعا في نظر غبي، لكن الأسف على أن هؤلاء لا يفهمون هل عمِل أحدٌ بهذا التعليم في أي زمن ما؟ وإذا عملوا على سبيل الافتراض فهل بقي عدد السكان نفسه ولم يحدث أي خلل في نفوس الناس وأرواحهم وأموالهم وسلام المجتمع؟ فهل هذا التعليم يوافق سنة خالق العالم التي تحتاج إليها الطباع المختلفة للناس. ألا يلاحظون أن جميع الطباع ميالة بالطبع إلى معاقبة المجرمين، وأن كل حكومة سنت قوانين تُعاقب المجرم عقوبة مستحقة لمنع الجرائم، وأن نظام أي بلد لم يسِر على ما يرام بمجرد الرُّحم دون قوانين العقوبة. لقد ارتكب المسيحيون سفك الدماء إثر مللهم من تعليم الرُّحم والرفق دوما، لدرجةٍ قد لا يكون لها نظيرٌ في العالم. وكما أن الماء يغمر المناطق المجاورة بعد هدم الجسر، ارتكبت الأمة المسيحية مثله التصرفات البشعة بعد تركها تعليم العفو والصفح؛ فكون هذين الكتابين ناقصَين وغير كاملين واضح جلي. أما القرآن الكريم فقد مشى في تعليمه الأخلاقي بمحاذاة قانون الطبيعة، فقد حثَّ على الرُّحم حين يتطلب قانون الطبيعة الرحمة، كما علَّم الغضب والعقوبة بقدر ما يسمح به قانون الطبيعة من ممارسة القسوة والشدة والغضب بحسب المبدأ نفسه. فتعليمه كاملٌ من كل النواحي داخليا وخارجيا. وإن تعاليمه واقعة على الدرجة القصوى للاعتدال، وتروي جميع فروع شجرة الإنسانية، لا فرعا واحدا فقط، وهي تربي جميع القوى لا قوة واحدة. وقد أشير إلى هذا الاعتدال والاتزان في الحقيقة في قوله تعالى ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾

ثم في كلمة ﴿مَّثَانِيَ﴾ أشير إلى أن آيات القرآن الكريم تتسم بكلا النوعين من النور عقلانيا وروحانيا. ثم قال بعد ذلك أن القرآن يفيض ببيان عظمة الحق لدرجةٍ تقشعر لها قلوب المستمعين إلى آياته، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله سُبْحَانَهُ. ثم قال إن هذا الكتاب حق وهو ميزان الحق أيضا، أي يُعرف الحق بواسطته أيضا. ثم قال إن الله أنزل من السماء ماء فسال كل واد بقدره أي أن القرآن الكريم يربي جميع الطباع الإنسانية بحسب فهم كل واحد منها وعقلِه وإدراكه. وهذا يستلزم الكمال التام، لأن في هذه الآية إشارة إلى أن القرآن الكريم بحر واسع زخار بالمعارف لدرجة أنْ يرتوي منه كلُّ عطاشى المعارف الحقة والحب الإلهي. ثم قال إنا أنزلنا هذا القرآن الكريم لكي يفصل في الاختلاف الذي حصل بين الأمم السابقة. ثم قال إن هذا القرآن يُخرج من الظلام إلى النور، وفيه شفاء لجميع الأمراض، وهو مليء بأنواع البركات؛ أي المعارف وما ينفع الناس. وهو يجدر بالتدبر، وأن يمعن العاقل النظر فيه، وبه تتم الحجة على جميع الخصوم الألداء، وفيه تفصيل كل شيء، وقد أُنزل عند الضرورة الحقة ونزل بضرورة حقة، وهو كتاب عزيز ولا يتسرب إليه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو نور أيضا يُهدى به، وفيه بيان كل شيء، وهو روح، وهو كتاب عربي فصيح وبليغ وفيه جميع الحقائق غير القابلة للتبدل. وإذا أراد جميع الجن والإنس الإتيان بنظير له- أي إذا أراد أحد من بني آدم

والجن أن يأتي بمثيل يتّسم بجميع الصفات الكاملة التي ذُكرت له- فلن يتمكن من ذلك، ويتعذر عليه حتى لو كان بعضهم لبعض نصيرا.

لقد ثبت هنا في هذا الموضع أن القرآن الكريم ليس عديم النظير من حيث بلاغته وفصاحته فقط بل هو منقطع النظير بسبب جميع محاسنه التي يصف نفسه بأنه يشملها، وهذا هو الصحيح؛ لأن ما صدر من الله تعالى ينبغي أن لا يكون عديم النظير في ميزة واحدة فحسب، بل يجب أن يكون عديم المثال في كل ميزة. لا شك أن الذين لا يعدّون القرآن الكريم جامعَ الحقائق غيرِ المحدودة والمعارف هم من زمرة الذين ﴿مَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. فمن أبرز علامات معرفة كلام الله الحق الصادق أن يكون عديم المثيل في جميع صفاته. لأننا نرى أن كل ما صدر من الله تعالى هو عديم النظير حتى لو كانت حبة شعير، ولا تقدر القوى البشريةُ على منافستها. وكونُ شيء عديمَ المثال يستلزم كونه غير محدود؛ أي لا يعد شيء عديم النظير إلا إذا لم يكن لعجائبه وخواصه أيُّ حد أو طرف. وكما بينا فإنَّ هذه الميزة متحققة في كل واحد من المخلوقات الإلهية. فمثلا إذا أراد أحدهم أن يبحث في عجائب ورقة من شجرة على مدى ألف سنة، فسوف تنتهي ألف سنة دون أن تنتهي عجائب تلك الورقة. والسرُّ في ذلك أن الشيء الذي صدر من القدرة غير المحدودة يجب أن تكون فيه عجائب وخواص غير محدودة. وتؤيد الآيةُ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ

رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[٤١] هذا الأمر نفسه من حيث أحد معانيها. ذلك لأن المخلوقات كلها كلمات الله من حيث معانيها المجازية. وفي ضوء ذلك نفسر الآية ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾[٤٢]. لأنه لا شيء زائد في ابن مريم عن مخلوقات أخرى؛ فإذا كان هو كلمةَ الله فآدم أيضا كلمة الله وأولاده أيضا، لأن كل شيء خُلق بكلمة: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. وكذلك إن صفات المخلوقات ومزاياها أيضا ﴿كَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي بمعنى مجازي. لأنها كلها صادرة من كلمة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. فمعنى هذه الآية نظرا لهذه المعاني أن خواص المخلوقات لا حد لها ولا نهاية. فلما لم يكن لخصائص كل شيء وكلِّ مخلوق أيُّ حد ونهاية، وكلُّ شيء يحتوي على عجائب غير محدودة، فكيف يكون القرآن الكريم -الذي هو كلام الله المقدس- محدودا في عدد من هذه المعاني الواردة في أي تفسير ذي أربعين أو خمسين مجلدًا أو ألف جزء أو في القدر الذي بينه سيدُنا ومولانا النبي ﷺ في زمن محدود؟ كلا بل إن مَثل التفوه بمثل هذه القول يكاد أن يكون كفرا في رأيي. وإذا أصر أحدهم على ذلك عن عمد فيُخشى أن يكون كافرا. وصحيح أن المعاني التي بينها النبيُّ المقدس ﷺ للقرآن الكريم هي حصرا صحيحة وحقة، لكنه ليس من الحق البتة القول إن القرآن الكريم لا يحتوي على أكثر من المعارف التي بيَّنها النبي

[٤١] (الكهف: ١١٠)

[٤٢] (النساء: ١٧٢)

ﷺ فقط. فهذه الأقوال لمعارضينا تدل صراحة على أنهم لا يؤمنون بعظمة القرآن الكريم ومحاسنه غير المحدودة. وأن قولهم بأن القرآن الكريم نزل للذين كانوا أميين يُثبت أكثر أنهم لا حظ لهم من بصيرة معرفة القرآن الكريم نهائيا. فهم لا يدرون أن نبينا ﷺ لم يُبعث إلى الأميين فقط. كلا بل إن أمته تشمل الناس وكل مرتبة وطبقة. يقول الله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٤٣]، فقد ثبت من هذه الآية أن القرآن الكريم نزل لإكمال كل نوع من الكفاءة، وإلى ذلك في الحقيقة تشير الآية ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٤٤]. فالفكرة القائلة بأن كل ما بيَّنه النبي ﷺ عن القرآن الكريم يستحيل أن يزيد عليه أحدٌ لبديهية البطلان. لقد أثبتْنا بأدلة قطعية ويقينية جدا أنه من الضروري لكلام الله أن تكون عجائبُه غير محدودة وعديمة المثال. أما إذا اعترض أحد وقال إنه إذا كانت العجائب والخواص من هذا القبيل تكمن في القرآن الكريم فلأي ذنب حُرم الأولون من هذه الأسرار؟ فجوابه أنهم لم يكونون محرومين كليا من الأسرار القرآنية بل قد وُهبت لهم المعلومات العرفانية التي كانت خيرا لهم في إرادة الله سبحانه وتعالى. كما أُظهرت في هذا الزمن من الأسرار قدر ما كان إظهارُها ضروريا نظرا لحاجات هذا الزمن. أما الأمور التي تعد مدار الإيمان والتي بناء على معرفتها وقبولها يعدّ أحد مسلما، فقد ظلت تُنشر في كل عصر

---

[٤٣] (الأعراف: ١٥٩)

[٤٤] (الأحزاب: ٤١)

باستمرار. إنني أستغرب من أين سمع هؤلاء المشايخ ناقصو الفهم أنه من الواجب على الله ﷻ أن يُظهر في الماضي أيضا بعض آلائه عز اسمه ونعمائه التي قدَّر إظهارَها في زمن مستقبل. كلا بل لا يجد أي سليم الحواس بدًّا من الإيمان بأن بعض نعماء الله التي ستظهر في المستقبل لا يكون لها أي أثر وعلامة في الماضي. لاحظوا أن الخواص التي اكتُشفت في العصر الراهن لمئات النباتات الجديدة، أو أنواع الصناعات والمراكب وتسهيلات المعيشة التي ابتُكرت الآن؛ متى وجدت في السابق؟ وإن قيل أين نموذج الحقائق والدقائق القرآنية التي لم تكتشف في الماضي، فجوابه أنكم ستطَّلعون- بقراءة تفسير سورة الفاتحة في نهاية هذا الكتيب- على أن القرآن الكريم يضم الحقائق والمعارف الخفية من هذا النوع التي هي ملائمة لضرورات كل زمن.

ولا يغيبن عن البال أخيرا أني لم أكتب هذه القصائد وهذا التفسير بدافع أي رياء أو الإعجاب بالنفس أو كسبًا للمدح، وإنما قصدي من ذلك أن يتضح على أصحاب العدل والإنصاف بحقِّ السيد البطالوي ومن هم على شاكلته ما أكذبَهم وأبعدهم عن الدين والأمانة في إصرارهم على أن هذا العبد المتواضع مفترٍ ودجال بالإضافة إلى كونه محروما تماما من علم الأدب، وعديم الحظ من حقائق القرآن الكريم ومعارفه، وأنهم هم العلماء الأفاضل من الدرجة العليا. إذا كان ميان البطالوي على حق وصادقا في تصريحاته وتُرَّهاته التي نشرها في مجلته "إشاعة السنة" عن كون هذا العبد المتواضع سفيها وجاهلا ومفتريا،

فلا شك أنه سينشر بلا حجة وحيلة أربع قصائد في مدح النبي ﷺ وتفسير سورة الفاتحة أيضا مقابل هذه القصائد والتفسير عددا وكمًّا. لكي يسودَّ وجه كل من يكذب ويزور. وكذلك فإن جميع المشايخ الذين قد حلت بجمجمتهم دودةُ التكبر والذين يعدّون هذا العبد المتواضع– رغم إظهاري الإيمان مراراً وتكراراً– كافرا ومرتدا ويرون أنفسهم شيئا معتدًا به، مدعوون لهذه المواجهة سواء أكانوا مقيمين في دلهي مثل ميان شيخ الكل –ميان نذير حسين الدهلوي– أو في لكهوكي مثل ميان محيي الدين ابن المولوي محمد المحترم أو في لاهور أو في أي مدينة أخرى. ومن مقتضى حيائهم وخجلهم الآن أن يبارزوا ويأخذوا ألف روبية. ولهم الخيار في أن يستخرجوا أخطاءنا أثناء إظهار الكفاءة العلمية مقابلنا، أو يختبروا كفاءتنا في علم النحو والصرف وفي الوقت نفسه يخضعوا هم أيضا للاختبار نفسه. إلا أنه سيكون من الوقاحة أن يفرضوا أنفسهم من طرف واحد أساتذةً دون أن يُظهروا قدراتهم العلمية مقابلنا.

فليكن معلوما هنا أن جميع الأخطاء التي أخرجها الشيخ البطالوي من الكتب العربية لهذا العبد المتواضع، إذا كان يَثبت منها شيءٌ فإنما هي وقاحة هذا الشيخ وعمايته التي قد بلغت درجة يرى فيها الصحيحَ خاطئا والفصيح ركيكًا. ولا نعرف لأي مدى يريد هذا الشيخ السفيه أن يفضح نفسه وما هي الذلة والخزي الذي قُدر له. بعض الأدباء من أهل العلم يبكون بسماع أقوال هذا الشيخ واطِّلاعهم

على هذه الانتقادات من هذا النوع، على درجة ما وقع فيه في وحل الجهل المركب. لقد كتبتُ سابقا وأعيد الآن أيضا لتذكير القراء، أنه إذا نجح ميان البطالويُّ في منافسة قصائدي الأربع وتفسير سورة الفاتحة وثبت أن قصائده وتفسيره منزهة من الأخطاء النحوية والصرفية والبلاغية في رأي المنصفين، فسوف أُهدي للشيخ البطالوي خمس روبيات مقابل كل خطأ في قصائدي والتفسير أو في أي مُؤلَّفٍ لي باللغة العربية. وأنا أؤكد للقراء أن الشيخ البطالوي عديم الحظ تماما من علم اللغة العربية، فإخراج الأخطاء مهمة أولئك الذين يكون نظرهم محيطا بالكلام العربي القديم والحديث، المطلعين على التعبير وعدم التعبير والأمثال وآلاف الأبيات العربية، والمتمتعين بموهبة التتبع والاستقراء. أما هذا الشيخ المسكين الذي أصابه الشيب في التأليف باللغة الأردية فأين هو من علم الأدب والبلاغة والفصاحة بالعربية؟

فما أدراه ما علم الأدب والبلاغة والفصاحة، فهل سمع أحدٌ قطّ أو شاهد أن هذا الشيخ نشر بضع مئات أبيات باللغة العربية من نظْمه؟ أما أنا فلا أتوقع منه القدرة على نظم بيت واحد باللغة العربية الفصيحة والبليغة. أجل إنه يعرف اللغة الأردية بالتأكيد. فليتدبر القراء أن هذا العبد المتواضع ولإماطة اللثام عن معرفته باللغة العربية قد كتب في الإعلان سلفا أن يكتب الشيخ المذكور تفسير أي سورة من القرآن الكريم مقابلي بالنص الفصيح البليغ العربي، وأن ينظم قصيدة أيضا تضم مائة بيت جالسا بحذائي. فلو كان للشيخ المذكور إلمامٌ باللغة

العربية لواجهني بكل سرور وأحرز جدارته في إتقان اللغة العربية جالسا عندي وجها لوجه. لكن ينبغي قراءة الصفحات من ١٩٠ إلى ١٩٢ من مجلته إشاعة السنة رقم ٨ مجلد ١٥ بتدبر لمعرفة كيف خلَّص نفسه بتقديم شروط ركيكة. فقد ورد في هذه الصفحات أنه سيُخرج قبل هذه المواجهة أخطاء في النص العربي لكتيب "دافع الوساوس"، كما سوف يَعرض كلمات الكفر والإلحاد الواردة في كتاب "فتح الإسلام وتوضيح المرام" بالإضافة إلى طلب الرد على ٨٥ سؤالا طرحه بصدد موت مرزا أحمد بيك الهوشياربوري المكتوبة في الرسالة رقم ٢٠ المؤرخة ١٨٩٣/١/٩م كما أنه سيعرض علي سؤالا حول معرفتي علم التنجيم وهل أعرف علم الرمل والجفر والمِسْمَرِيّة؟ ثم سوف يطلب الرد على ردوده التي ردَّ بها على ردودي وهكذا ستستمر سلسلة الردود، ثم سوف يسألني الدليل على كوني ملهما ومؤيدا من الله بخصوص كتابة التفسير باللغة العربية. أي كيف يثبت من إتقاني اللغة العربية أني أتلقى الإلهام من الله؟ ثم سيطلب دليلا على كوني ملهما ومؤيدا من الله، وإذا نجحتُ في الرد على كل هذه الأسئلة فسوف يواجهني في كتابة التفسير باللغة العربية والقصيدة في مدح النبي ﷺ وإلا فلا.

فاقرأوا الآن أيها القراء بالله عليكم هذه الصفحات الثلاث من إشاعة السنة المذكورة أي ١٩٠-١٩١-١٩٢ بتدبر، لتعرفوا هل هذه الإجابة والحيل من هذا الطراز يمكن أن تصدر من شخص يعدّ

نفسه في الحقيقة من علماء اللغة العربية الأفاضل؟ والذي يوقن بأن خصمه جاهل لدرجة أنه لا يعرف -بحسب قوله- أي صيغة عربية، وهو لا يتلقى الدعم من الله. إنما كان أساس طلبِنا على أن هذا الشيخ المكار المحتال كان قد بدأ يصرح في الجلسات والندوات والمواعظ وفي خطاباته وكتاباته في كل مكان بأن هذا الإنسان (أي هذا العبد المتواضع) مفترٍ في دعواه بتلقي الإلهام من ناحية ودجال وكاذب، ومن ناحية أخرى يجهل العلوم العربية وعلم الأدب وعلم التفسير وأميٌّ لدرجة أنه لا يمكن أن تخرج من فمه صيغةٌ صحيحة واحدة. وكان قد كذّب بالآيات السماوية التي ظهرت سابقا وحسبها من علم الرمل والجفر. لذا قد أراد الله ﷻ أن يخزي هذا الرجل ويهينه من هذه الناحية أيضا. فالواضح جليا أن هذا الرجل لو كان من أهل العلم والأدب لما كانت هناك حاجة لطرح مئة أو مئتي شرط وحيلة كهذه. إنما كان الأمر الجدير بالتنقيح، التأكد إن كان الشيخ المذكور صادقا أم كاذبا في تصريحاته التي نشرها في كل مكان، وإن كان هذا العبد المتواضع أقل منه درجة أو أكثر في الكتابة باللغة العربية والتفسير. وكنت قد أقررت في حال فاقني أني سوف أحرق كتبي وأتوب، وكنت حددت أربعين يوما لهذه المسابقة مراعاة للشيخ المذكور. إلا أن الشيخ فسَّر ذلك خبثا أني قصدت من تحديد أربعين يوما أن الشيخ سوف يموت بعد أربعين يوما، مع أنه ورد بوضوح أن المسابقة ستطول أربعين يوما لا أن الشيخ سوف يرحل من هذا العالم بعد أربعين يوما. فلمّا لم

يُرِد الشيخ المواجهة على هذا النحو وصرَف القضية بأسلوب سخيف لذا اضطررنا لتغيير الجانب لهذه المواجهة. ونستطيع أن نتنبأ بفراسة الإيمان بأن الشيح لن يقبل أبدًا أسلوب المواجهة هذا أيضا، وسوف يسعى لإلغائها بحسب عادته القديمة. الحقيقة أن الشيخ المحترم لا حظّ له من علم الأدب والتفسير تماما وإنما اشتهر باسم الشيخ لسبب مجهول. إلا أن أمام الشيخ المحترم طريقة سهلة، لأن المخاطب في هذا الكتيب ليس شيخا محترما وحده بل المخاطَبون جميع أولئك المشايخ المكفِّرين الذين يعدّون هذا العبد المتواضع المتبع لله والرسول خارجا من دائرة الإسلام. فيجب على الشيخ أن يتوجه إليهم بتعظيم، ويتوسل إليهم ويبكي أمامهم ويخر على أقدامهم لينقذوه من الفضيحة في ادِّعاء إتقانه اللغة العربية في هذه الساعة الحرجة. فليس من المستبعد أن يشفق عليه أحدهم. لكن سيلزمه أنه إذا توجه إلى شيخٍ حنفي أن يقول له بأنه الآن حنفي، أما إذا توجه إلى الشيعة فليقل أنه من شيعة أهل البيت! فقد سمعنا أن الشيخ قد اتخذ هذا المنهج في هذه الأيام. لكن المشكلة أني قد تلقيت إلهاما بحق هذا الشيخ وكلِّ مكفر يريد السوءَ لي: "إني مهين من أراد إهانتك". لذا ستكون جميع مساعي الشيخ المحترم عبثا. وإذا نهض أي شيخ زهوا واحتيالا لتأييد الشيخ المحترم فسوف يُكَبّ على وجهه. سوف يكسر الله كبر هؤلاء المشايخ المستكبرين وسوف يريهم كيف يؤيد المتواضعين، ويلقي بالأشرار في النار المضطرمة. يقول الشرير إني سوف أغلب بمكري ودهائي

وشطارتي وإني سوف أمحو الصدق والحق بمكايدي. وتقول له قدرة الله وطاقته: أيها الشرير، مَن علَّمك نسج المكايد مقابلي؟ ألستَ الذي كان قطرة مهينة في الرحم، فهل تقدر على أن تُبطل كلامي؟

وأخيرا أكشف على العامة أني أُقسم بالله جل شأنه بأني لست كافرا، بل أعتقد بأنه **لا إله إلا الله محمد رسول الله**، وأؤمن بالنبي ﷺ بحسب ما ورد في ﴿لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٤٥]. وإني أقسم على صدق بياني هذا بقدر أسماء الله الحسنى وبقدر حروف القرآن الكريم وبقدر كمالات النبي ﷺ عند الله سبحانه وتعالى. فليس أي معتقد لي يخالف قول الله ورسوله. أما الذي يظن ذلك فهذا سوء فهمه، والذي ما زال يعدّني كافرا ولا يكفّ عن التكفير فليعلم يقينا أنه سيُسأل بعد الموت؟ إني أقول مقسما بالله جل شأنه بأن يقيني بالله ورسوله ثقيل لدرجة أنه لو وُضع إيمانُ الناس كلهم في العصر الراهن في كفة ووضع **إيماني** في كفة أخرى فسوف يثبت أن **هذه الكفة ستكون راجحة بفضله تعالى**. [٤٦]

[٤٥] الأحزاب: ٤١

[٤٦] تنتهي هنا ترجمة النص الأردي الموجود في هذا الكتاب. (الناشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

واعلموا يا معشر المسلمين.. أن هذا الشيخ قد كذّبني وأكفرني بغير علم وهُدى، واعتدى في الإكفار وطفق يسبّني ويحسبني من الذين يدخلون جهنم خالدين فيها وليسوا منها بخارجين. فقلتُ ويحك أيها الشيخ الضال، أَقَفَوتَ ما ليس لك به علم، والله يعلم أني من المؤمنين. وقد ربّاني ربّي وحبيبي، وأدّبني فأحسن تأديبي، ورحمني وأحسن مثواي، وإني من المنعمين. ولم يزل ينتابني فيضانه، ويتواتر عليَّ إحسانه حتى خرجتُ من البيضة البشرية، وأُدخِلتُ في الروحانيين. ومن بعد أنزلَني ربّي لإصلاح الضالين، لأنصر الدين وأرجم الشياطين. وإن كنتَ في شك من أمري فسوف يُريك ربي آياته، فكن من الصابرين الذين يتقون الله، ولا تكن من المستعجلين. فأبى واستكبر وأراد أن يكون أول الْمُكَفرين. وما اقتصر على التكفير بل سبّني ولعنني وحسبني من الملعونين. والله يعلم قلبي وقلبه وهو خير المحاسبين.

ثم دعوتُه للمباهلة ليحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. فلم يُباهل وفرّ، وعلى الفرار أصرّ، ولم يكن فراره بنية الصلاح، بل لتَوَقّي الافتضاح، والافتضاحُ ملاقيه وإن كان من الهاربين. وكان قد ادّعى أنه عالم أديب وأنا من الجاهلين. فدعوته للنضال في كلام عربي مبين، وقلت تعال أُناضلك في النظم العربي ونثره وأقول ما تقول، وفي كل وادٍ معك أجول، وإني إن شاء الله من الغالبين. فأشاع في شياطينه أنه قَرْنُ

مجالي وقرين جدالي، فلزقتُ به كالداء العُضال، ليبارزني للنضال إن كان من الصادقين. فخاف وأبى، ونحت الحِيَلَ وتولَّى، ولا يُفلح الكاذب حيث أتى.

فألهمني ربي طريقا آخر ليَهلك من كان من الهالكين، وهو أنني نظمت في هذه الأيام قصائد، وثقفتها في ثلاثة أيام أو أقل منها، والله عليه شاهد وهو خير الشاهدين. وزيّنتُها بالنِّكات المهذَّبة، والاستعارات المستعذَبة، ملتزما جدّ القول وجزله، وأيّدني ربي وعلّمني سبلها وإن كنت من الأُمّيّين. فالآن وجب على الشيخ المذكور أن يُناضلني في ذلك، وينظم قصيدة في تلك الأمور بعِدّةِ أبيات هذه القصائد وأساليب بلاغتها، فإن أتم شرطي فله ألف من الدراهم المروَّجة، إنعامًا مني عليه ولكل من ناضلني من العلماء المكفِّرين. ومع ذلك أوتيهم موثقا من الله لأكتب لهم بعد غلبهم كتابا فيه أُقرّ بأنهم العالمون الأدباء وإني من الجاهلين الكاذبين المفترين. ولكن لا يجب عليَّ إيفاء هذا الشرط وأداء هذا الإنعام إلا بعد شهادة فرسان الصناعة وأرباب البراعة، وتصديق من كان جِهْبِذ تنقيدِ الكلام من الأدباء الماهرين. وإن لم يفعلوا.. ولن يفعلوا.. فاعلموا أنّهم من الكاذبين الجاهلين المفندين.

وهذا آخر الحِيَل لسَبْرِ قُليب ذلك الشيخ المضل، فإنه أهلك خَلقًا كثيرا بغوائله، فظلوا عُمْيًا وعُورًا وكانوا على علمه متكئين. وأرجو بعد

ذلك أن يُنجيهم الله من شره وهو خير المنجين. والآن أكتب قصيدتي، وما توفيقي إلا بالله الذي هو ربي وناصري، ومعلّمي في كل حين.

القصيدة الأولى
في نعت الرسول ﷺ

يا قلبي اذكر أحمدا عينَ الهدى مُفني العدا
برًّا كريما محسنا بحر العطايا والجَدا
بدر منير زاهرٌ في كل وصفٍ حُمِّدا
إحسانه يصبي القلو ب وحسنه يروي الصدى
الظالمون بظلمهم قد كذّبوه تمردا
والحق لا يسَعُ الورى إنكارَه لما بدا
اطلُبْ نظيرَ كماله فستندمَنّ مُلَدَّدا
ما إن رأينا مثله للنائمين مُسهِّدا
نور من الله الذي أحيا العلومَ تجدُّدا
المصطفى والمجتبى والمقتدى والمجتدى
جُمِعتْ مرابيع الهدى في وَبْله حين الندى
نَسِيَ الزمان رِهامَه مِن جَوْد هذا المقتدى
اليوم يسعى النِكْسُ أن يُطفي هداه ويُخمِدا
واللهُ يبدي نوره يوما وإن طال المَدى
يا قطرَ ساريةٍ وغا دٍ قد عُصمتَ من الردَى
ربّيتَ أشجار الأَسِرَّ ة بالفيوض وقَرْدَدا

إنا وجدناك الملاذ فبعد كهفٍ قد بدا
لا نتّقي قوسَ الخُطو ب ولا نبالي مُرجِدا
لا نتّقي نُوب الزما ن ولا نخاف تهدُّدا
ونمُدُّ في أوقات آفا تٍ إلى المولى يدا
كم من منازعة جرتْ بيني وأقوام العِدا
حتى انثنيتُ مظفَّرا وموقَّرا ومؤيَّدا
يا أيها الناس اتقوا يوما يشيِّبُ ثَوْهَدا
آلامُه ما تنقضي وأسيره ما يُفتدَى
واللهِ إني ما ضللْ تُ وما عدلتُ عن الهدى
لكنني مُذْ لم أزل ممن إذا هُدِيَ اهتدى
لله حمدٌ ثم حمدٌ قد عرفنا المقتدى
كادت تُعفِّيني ضلالا تٌ فأدركَني الهدى
يا صاحِ إن الله قد أعطى لنا هذا جَدا
هو ليلة القدر التي تُعطي نعيمًا مُخْلَدا
أتجول في حَوْمات نفسك تاركا سنن الهدى
هلا انتهجتَ محجة الأحياء يا صيدَ الردى
يا مَن غدا للمؤمنين أشدَّ بغضا كالعدا
اخترتَ لذةَ هذه ونسيتَ ما يُعطى غدا
يا خاطِبَ الدنيا الدنيّ ة قد هلكتْ تجَلُّدا
عاديتَ أهلَ ولاية وقفوتَ آثارَ العدا

اليوم تُكفِرني وتح سبني شقيّا ملحِدا
يا مَن تَظنّ الماءَ مِن حمقٍ سرابا واعتدى
السَّبْرُ سهلٌ هيّنٌ إن كان فهمٌ أو صدى
واللهِ لو كُشِفَ الغطا ء وجدتَني عينَ الهدى
ونُظِمتَ في سلكِ الرفا ق وجئتَني مسترشدا

القصيدة الثانية

أيا محسني أُثني عليك وأشكر فدًى لك روحي أنت تُرسي ومأزَرُ
بفضلك إنا قد غلبنا على العِدا بنصرك قد كُسِرَ الصليب المبطِّر
فتحتَ لنا فتحا مبينا تفضُّلا بفوجٍ إذا جاؤوا فزَهق التنصُّرُ
قتلتَ خنازير النصارى بصارمٍ وأردى عِدانا فضلُك المتكَثِّرُ
بوجهك ما أنسى عطاياك بعده وفي كل نادٍ نبأُ فضلِك أذكُرُ
تلبّيك روحي دائما كلَّ ساعة وإنك مهما تَحْشُرِ القلبَ يَحْضُرُ
وتعصمني في كل حرب تَرَحُّمًا فدًى لك روحي أنتَ دِرعي ومِغْفَرُ
ينوّر ضوءُ الشمس وجهَ خلائقٍ ولكن جناني من سناك يُنوَّر
تحيط بكُنْهِ الكائنات وسِرِّها وتعلم ما هو مستبان ومُضمَرُ
ونحن عبادك يا إلهي وملجأي نخِرُّ أمامك خشيةً ونكبِّرُ
نَصَرتَ لإفحام النصارى قريحتي وهدَّمتَ ما يُعلي الخصيمُ ويعمُرُ
وأخذتَهم وكسرتَ دَأْيًا مُنَضَّدًا وأتممتَ وعدكَ في صليب يُكَسَّرُ
فسبحان مَن بارى لنصرة دينه وأخزى النصارى فضلُه المتكَثِّرُ
سقاني من الأسرار كأسا رَوِيَّةً وإن كنتُ مِن قبل الهدى لا أعثُرُ
غيورٌ يبيد المجرمين بسخطه غفورٌ ينجّي التائبين ويغفرُ
وحيد فريد لا شريك لذاته قويٌّ عليٌّ مستعان مُقدِّرُ
له الملك والملكوت والمجد كله وكلٌّ له ما بان فينا ويظهَرُ

ودودٌ يحبّ الطائعين ترحّمًا ... مليكٌ فيُزعِج ذي[*] شِقاق ويحصِرُ
يحيط بكيد الكائدين بعلمه ... فيهلك من هو فاسق ومزوِّر
ولم يتخذ ولدًا ولا كفوٌ لهُ ... وحيد فريد ما دناه التكَثُّر
ومن قال إن له إلها قادرا ... سواه فقد نادى الردى ويُدمَّر
وبشّرني قبل الجدال بلطفه ... فقال لك البشرى وأنت المظفَّر
ففاضتْ دموع العين مني تذللا ... وقصدتُ "عَنْبَرْسَر" وقَطْرِيَ يَمْطُر
فجئتُ النصارى في مقام جلوسهم ... فتخيَّروا منهم خصيما وأنظُر
وظلَّ النصارى ينصرون وكيلَهم ... وكُلٌّ تسلَّحَ صائلا لو يقدِر
رأيتُ مُبارزهم كذئب بظُلمه ... يصول على سبل الهدى ويزوِّر
فخاصمَ ظلما في ابن مريم واجترا ... على الله فيما كان يهذي ويهجُر
وقال: له ولدٌ.. مسيحُ ابن مريم ... فسبحان ربّ العرش عمّا تصوروا
وقال بأن الله اسم ثلاثة ... أب وابنه حقا ورُوحٌ مطهَّر
فقلتُ له اخْسَأْ ليس عيسى بخالق ... وخالقُنا الرب الوحيد الأكبر
أتُثبتُ في مُلك له مِن بريَّةٍ ... من الأرض أو هو في السماء مدبِّر
وإن على معبودك الموت قد أتى ... وإلهنا حي ويبقى ويَعْمَر
وليس لمستغنٍ إلى الابن حاجةٌ ... وحاشاه ما الأولاد شيئًا يوقِّر
أعيسى الذي لا يعلم الغيب ذرة ... إله وتعلَم أنه لا يَقْدِر
فأثنى على إبليس بالعلم والهدى ... وقال هو الشيخ الذي لا يُنكَّر
ويؤمن بالابن الوحيد تيقُّنًا ... ومذهبه مثل النصارى تنَصُّر

---

[*] *سهو، والصحيح: "ذا". (الناشر)*

فقلتُ له يا أيها الضال مِن هوًى أتُثني على غولٍ يُضل ويُدخِر
وما كان حامِدَه بصيرٌ قبلكم ولكنكم عُمْيٌ فكيف التبصُّر
فما تاب من هذيانه وضلالهِ وكان كدجّال يُداجي ويمكُر
وكم من خرافات وكم من مَفاسدٍ تقوَّلَ خبثًا ذلك المتنصر
وقال لي إن الله خَلْقٌ وخالقٌ ومسيحُنا عبد وربٌّ أكبر
فقلتُ له يا تارك العقل والنهى إله وعبد؟ ذاك شيء منكَر
إذا قلّ دين المرء قلّ قياسه ومن يؤمنَنْ يُرشده عقل مطهَّر
وإني أرى في خبطِ عشواء عقولَكم تقولون ما لا يفهم المتفكِّر
وإني أراكم في ظلام دائم وما في يديكم من دليل ينوِّر
وإن هو إلا بدعة غير ثابت وإثباته مستنكَرٌ متعذِّر
تعرف في الصحف القديمة مثله وقد جاء هدي بعد هدي ومنذِر
أناجيل عيسى قد عفتْ آثارها وحرّفها قوم خبيث مُعيّر
نبذتم هدايته وراء ظهوركم وهذا من الشيطانِ هديٌ آخر
أقمتم جلال الله في رُوحِ عاجزٍ وهيهات لا والله بل هو أحقَ
فقير ضعيف كالعباد وميّت نعَمْ من عباد الله عبدٌ مُعزَّر
وإن شاء ربي يُبْدِ ألفًا نظيرَه وأرسلني ربي مثيلا فتنظُر
وقد اصطفاني مثل عيسى ابن مريم فطوبى لمن يأتينِ صدقا ويبصر
أنبيُّنا مَيْتٌ وعيسى لم يمت؟ أَجَزْتم حدودًا يا بني الغول فاحذروا
تُوفِّي عيسى هكذا قال ربنا فلا تهلكوا متجلدين وفكِّروا
أتتخذ العبد الضعيف مهيمنا؟ أتعبد ميتا أيها المتنصر؟

ألا إنه عبد ضعيف كمثلنا فلا تَتَّبِعْ يا صاحِ قوما خُسِّروا
ووالله يأتي وقت تصديق كلمتي ويبدي لك الرحمن ما كنت تُضمِر
فلا تسمعَنْ مِن بعد ذئبا وعقربا يصول بوثبٍ أو تدِبّ وتأْبِر
مقامي رفيع فوق فكرِ مفكِّر وقولي عميق لا يليه المصغِّر
إذا قلّ علم المرء قلّ اعتقاده وما يمدَحَنْ حسنًا ضريرٌ معذَّر؟
ألا رُبَّ مجد قد يُرى مثل ذلّة إذا ما تعالى شأنه المتستِّر
ألم تعلمَنْ أني جريٌّ مبارز وإن كنت في شك فبارِزْ فنحضُر
وبارزتُ أحزاب النصارى كضيغم بأيدٍ وفي اليمنى حُسامٌ مشهَّر
وما زلتُ أرميهم برمحٍ مُذَرَّبٍ إلى أن أبان الحقُ والحقُ أظهَر
وإنا إذا قمنا لصيدِ أوابدٍ فلا الظبي متروك ولا العَيْرُ يُنظَر
وقتل خنازير البراري وخَرْشُهم أَشاشٌ لقلبي بل مرام أكبر
وفي مُهجتي جيشٌ وأزعم أنه يكافئ جيشَ القِدْرِ أو هو أكثر
إذا ما تَكلّمنا وبارَى مخاصمي ولاحت براهيني كنار تزهَر
فأُوْجِس مبهوتا وأيقنتُ أنني نُصرتُ وأيّدني قديرٌ مظفِّر
وأدركتُه في حمئةٍ فدعوتُه إلى مشربٍ صافٍ وماء يُطهِّر
فردَّ عليّ بباطلات من الهوى ووالله كان كذي ضلال يزوِّر
وقال لعيسى حصّةٌ في التألُّهِ وفي هذه سِرٌّ على العقل يعسُر
وإن ابن مريم مَظهرٌ لأب له فنحسبه ربا كما هو يُظهِر
فقلتُ له هذا اختلاق وفِرية وما جاء في الإنجيل ما أنت تذكر
وإن إلهك مات واللهُ سرمدٌ قديم فلا يفنى ولا يتغير

وما لا يُحَدُّ فكيف حُدِّد كالورى ... ووجه المهيمن مِن مَجالي مُطهَّر
وليس تُقاس صفاته بصفاتنا ... ولا يدركه بصر ولا مَن يُبصِر
تعالتْ شؤون الله عن مبلغ النهى ... فكيف يصوِّر كُنْهَه متفكِّر
وإن عقيدتكم خيال باطل ... وما في يديكم مِن دليل يوفَّر
وللخَلق خلّاقٌ فتَدَعون ذكرَه ... وتَدْعون مخلوقا ولم تتفكروا
ومن ذاق من طعم المنايا بقولكم ... فكيف كحيٍّ سرمدٍ يُتصوَّر
وقد نوَّر الفرقانُ خَلْقا بنوره ... ولكنكم عُمي فكيف أُبَصِّر
ألا إنه قد جاء عند مفاسدٍ ... إذا ما انتهى الليلاء فالصبح يجشرُ
تُرى صورةُ الرحمن في خِدْرِ سُوْرِهِ ... فهل من بصير بالتدبر ينظُر
تراءى لنا الحق المبين بقوله ... وآياته دُرَرٌ ومِسكٌ أَذْفَر
قُلِ الآن هل في كتبكم مثل نوره ... وفكِّرْ ولا تعجل ونحن نُذكِّر
وإن كنتَ تزعم أن فيها دلائلا ... فجهلك جهلٌ بيِّن ليس يُستَر
وإن قلتَ آمنّا بما لا نعقل ... فهذا الهدى عند النهى مستنكَر
وسَلِ اليهودَ وسَلْ أكابر قومهم ... أَسُلِّمَ فيهم ابنُك المتخَيَّر
ومهما يكن في كُتْبكم ذِكْرُ عجزه ... وإنْ خِلتَه يخفى على الناس يظهَر
جِعارُك خيطٌ فاتّقِ البئرَ والردى ... أللموت يا صيدَ الردى تتجَعَّر
أقلبك قلبٌ أو صَلايَةُ حَرَّةٍ ... أجهلُك جهل أو دخان مُغبَّر
أكلتَ خُشارةَ كل قوم مُبْطلٍ ... فتأكل ما أكلوا ولا تتخَفَّر
أباريتَ يا مسكين ذا الرمح بالعصا ... وأنَّى أَجارِدُنا وأنَّى مِحْمَر
أترغب عن دين قويم منوّر ... وتتبَع دينًا قد دَفاه التكدُّر

وإن لم تداور جُشْرَة البخل والهوى فتَهْوِ نحيفا في الهُلاس وتخطُر
وإني كماء عند سِلْم وخُلَّة وفي الحرب نارٌ جَعْظَرِيٌّ مُثَعْجِر
إذا ما نصبنا في مواطنَ خيمةً فلا نرجعَنْ عند الوغا ونُجَمِّر
ولو ابتهرتَ وقلت إني ضيغم ففي أعيني ما أنت إلا جَوْذَر
ألا أيها الصيد الركيك الأعورُ إلامَ تُحامي عنك سهمي وتَأفِر
أعيسى الذي مات ربٌّ وخالق؟ أهذا هُدى الإنجيل أو تستأثر؟
أعيسى إلهٌ أيها العميُ من هوًى وأين ثبوت بل حديث يُؤْثَر؟
ظننتم فأنتم تعبدون ظنونكم كشخصٍ مِئَرٍّ عاشق لا يصبر
تركتم طريق الحق شُحًّا وخِسَّةً وسيعلمَنْ كُلٌّ إذا ما بُعثروا
عسى أن يزيل الله شُحَّ نفوسكم ولكنه بَغْرٌ شديدٌ مدمّر
ومن كان ذا حِجْر فيدري حقيقةً ومن كان محجوبا فيهذي ويهجُر
ستغلب يا يَحْمورَ قومٍ محقَّر ومِحْضِيرُنا يعدو ولا يتحسّر
قد استخمر الشيطان نفسك كلها فأنت لغُول النفس عبدٌ مسخّر
ألا إن ربي قد رأى ما صنعتَه فنفسك سوف تُحَجَّرَنْ وتُحَوَّر
أتطفئ نورا قد أُريدَ ظهورُها لك البُهرُ في الدارين والنورُ يَبهَر
وإني أرى قد بارَ كيدك كله ويهتِك ربي كلَّ ما هو تَسْتُر
أتترك أعنابا وتنقِف حنظلا وهذا وبال أنت فيه متبَّر
تَياهيرُ قَفْرٍ في عيونك مَرْبَعٌ وأسرَّكم سِقْطُ اللوى وحَبَوْكَر
عقيدتكم قد صار للناس ضُحكةً ويضحك جمهورٌ عليه ويُنكر
رأى الناسُ بالتحقيق ما في بيوتكم وإجَّارُ بيتٍ مِن بعيد يظهر

ولا يُظهِرَنْ إنجيلكم نهجَ الهدى وهداه جَمْجَمَةٌ وقولٌ مُكوَّر
ومَن تبعه ما وجد ريح تيقُّنٍ ولكن إلى الإلحاد والشكِّ يُدحَر
وما فيه إلا ما يُضلّ قلوبكم ويهُدُّ ببيت نجاتكم ويدمِّر
ومن أين طفل للذي هو أطهرُ أَلِلّهِ زوجٌ أيها المتمَذِّر؟
ولكننا لا نعرف اللهَ هكذا وحيدٌ فريدٌ قادرٌ متكبر
وذلك للدين القويم كرامة إذا ما تبعتَ هُداه فالله يؤثِر
ويَشغِفك الله العزيز محبةً ويأخذ قلبَك حُبُّ حِبٍّ ويأطِر
فطوبى لمن صافى صراطَ محمد وكمثل هذا النور ما بانَ نَيِّر
وصلنا إلى المولى بهدي نبينا فدَعْ ما يقول الكافر المتنصّر
وفي كل أقوامٍ ظلامٌ مدمِّرٌ وإن رسول الله بدرٌ منوّر
وإن رسول الله مُهْجةُ مُهْجتي ومِن ذكره الأحلى كأنّي مُتْمِر
فدَعْ كلَّ ملفوظ بقولِ محمد وقَلِّدْ رسولَ الله تَنْجُ وتُغفَر
وليس طريق الهدي إلا اتّباعَه ومَن قال قولا غيره فيُتبَّر
ومَن ردَّ مِن قِلِّ الحياء كلامَه فقد رُدَّ ملعونا وسوف يُمَزَّر
ومن يَرَ تقوًى غيرَ هدي رسولنا فذلكم الشيطان يعتُو ويُشْغَر
وما نحن إلا حزب ربٍّ غالبٍ ألا إن حزب الله يعلو ويُنصَر
ووالله إن كتابنا بحرُ الهدى وتاللهِ إن نبيّنا مُتبَقِّر
ويبقى إلى يوم القيامة دينُه له ملّةٌ بيضاءُ لا تتغير
ونؤثِر في الدارَينِ سننَ رسولنا وسنّةُ خيرِ الرسل خيرٌ وأزهَر
فلما عرفتَ الحق دَعْ ذكرَ باطلٍ ولو للصداقة مثلَ بَكْرٍ تُنهَر

ألا أيها الثرثار خَفْ قهرَ قاهر ويعلم ربي ما تُسِرُّ وتَخْمِر
فلا تقْفُ ما لا تعرفَنَّ وُجوهَه وثابِرْ على الحق الذي هو أظهر
ووالله ما كان ابن مريم خالقا فلا تهلكوا بغيًا وتوبوا واحذروا
ولا تعجَبَنْ مِن أنه ليس من أبٍ وكمثل هذا الخَلْق في الدُود تنظُر
بل الدود أعجبُ خِلقةً من مسيحكم ويخلق ربي ما يشاء ويقدر
ألا رُبَّ دُود قد ترى في مربعٍ تكَوَّنُ في ليل وتنمو وتكثر
وليستْ لها أُمٌّ بأرض ولا أبٌ ففكِّرْ هداك الله هادٍ أكبر
وإن كنتَ لا تَدَعُ الجدال وتُنكرُ فبارِزْ لنا إنا إلى الحرب نَعْكِر
وإن لنا المولى ولا مولى لكم فتنظر أنَّا نغلِبَنّ ونُنصَر
ووالله إني أَكسِرَنَّ صليبكم ولو مُزِّقتْ ذراتُ جسمي وأُكسَر
ووالله يأتي وقتُ فتحي ونصرتي ووالله إني فائز ومُعزَّر
ووالله يُثنَى في البلاد إمامُنا **إمامُ الأنام المصطفى المتخيَّر**
وما في يديك بغير قولٍ مدلَّس تَكَدُّ وتستقري المحالَ وتَفْجُرُ
وكُتُبُك قَفْرٌ حشْوُها الكفرُ والردى محرَّفةٌ في كل عام تُغيَّر
فتلك براهينٌ على سَخْفِ دينكم وقد قلتُ تحقيقا ولو أنت تَبْسُر
لقد زيَّن الشيطان أقواله لكم يوسوسكم في كل حين ويمكُر
وقد ذكَّر الأخيارُ من قبلُ قومَكم ولأُخرياتِ الناس نحن نذكِّر
وكيف يساوي دينُ عيسى لديننا ولا يستوي دخنٌ ونجمٌ أزهَر
وقد جاء يوم الله فاليومَ ربُّنا يدقّق أجزاء الصليب ويكْسِر
وقلتُ له لا تحسَبِ العبدَ خالقا وكلّ امرئ عن قوله يُستفسَر

وقلتُ له لا تسترِ الحق عامدا سيبدي المهيمنُ كلّ ما كنتَ تَستُر
وقلتُ له لما أبى إن شأننا بلاغٌ فبلَّغْنا وإنك مُنذَر
وإن كنتَ لم تسمع فزِدْ في تجاسُرٍ لتُسْعِرَ نار الله ثم تُدمَّر
فزِدْ في جَراءاتٍ وزِدْ في تقاعُس وزِدْ في عمايات فتفنى وتُبتَر
وليس عذاب الله عَذْبا كما ترى سيُحرَق في نار اللظى مَن يفجُر
غيور فيأخذ مشركا بذنوبه وليس له أحدٌ شفيعا ومَأْزَر
رفيعٌ عليٌّ كيف يُدرَك كنهُهُ إذا ما ترقَّتْ عينُنا تتحير
أتعصون بغيًا مَن به الخَلْقُ آمنوا أتنسون يوما ما به الناس أُنذِروا
وكيف يكون العبد كابْنٍ لربّه فسبحان ربِّ العرش عما تصوروا
وقد مات عيسى ليس حيًّا وإننا نردّ على من قال حيٌّ ونَحْجُر
وأخبرَني ربي بموت مسيحكم وكان هو الأولى وأكفى وأجدر
وكم من دوابّ الأرض يحيا مدّة على ظهرها فَاعْجَبْ لهذا وفكِّروا
وإن جنود الأنبياء وحزبهم ألوفٌ فهل ترَيَنَّ كابنك آخَر
فإن كان للرحمن ولدٌ كقولكم فشجرة نسل الله تنمو وتكثر
أبُدِّلَ سنّةُ ربّنا بعد مدّة؟ أيمكن في سنن القديم تغيُّر؟
وقانون سنن الله في بعث رسله مبين فهل أبصرتَ أو لا تُبصر؟
وإن لم تر اليوم الهدى فترى غدا ظلاما مهيبا فيه تهوي وتُندَر
أتخلع جهلا رِبْقةَ العقل والنهى لأقوالِ قوم قد أضلّوا ودُمِّروا
أتترك ما جاءت به الرسل من هدى ألا تَتْبَعَنْ قوما هُدوا وتبقَّروا
عليكم بسبل الله من قبل ساعةٍ تُريكم لظى النار التي هي تُسعَر

عذاب أليم لا انتهاءَ لحرقه وإن ينضَجَنْ جِلدٌ فيُخلَق آخَر
ينبِّئك العلام ما كنتَ تُضمِرُ ويبدي لك النورَ الذي اليوم تُنكِر
ألا أيها الناس اتقوا الله ربكم وإن عذاب الله أدهى وأكبرُ
ألم يأتكم نُذُرٌ وآياتُ ربكم نرى بَغْيَكم ودموعُنا تتحدرُ
ولكلّ نبأٍ مستقرٌّ ومَظْهَرُ ولكلّ ما يأتيك وقت مقدّرُ
ويَحكُم ربُّ العرش بيني وبينكم وها أنا قبل عذاب ربّي أُخبِرُ
وقوم مضوا من قبل ضالين مِن هوًى فأنتم قبِلتم كلَّ ما هُمْ زَوَّروا
أخذتم طريق الشرك والفسق والردى وثَرَّتْ خطاياكم فلم تستغفروا
فأرسلَني ربي إليكم لتهتدوا ولتقبَلوا ما قال ربي وتُغْفَروا
فإن شئتَ ماء الله فاقصِدْ مَناهلي فيُعْطِك مِن عينٍ وعينٍ تُنوَّرُ
وأغلَظُ حجبٍ ما تُراك على الهدى تعالَ على قدم الضلال فتُزهَرُ
وفيك فساد لو علمتَ اجْتنبتَه وذلكم الشيطان يُغوي ويَحصُرُ
ذبتُ عن الدين الحنيفِيْ شكوكَكم وأزعجتُ أصلَ أصولِكم ثم تُنكِرُ
وقلتم: لنا دين بعيد من النهى وهذا فساد ظاهر ليس يُستَرُ
وكلُّ امرئ بالعقل يفهم أمره كما بالعيون يشاهِدَنَّ ويُبصِرُ
وعقلُ الفتى نصف، ونصفٌ حواسُّه وكصَفْقِ أيدٍ منهما العلمُ يَظهَرُ
تصديتَ في نصر الضلال تعمُّدا فبارِزْ لحرب الله إن كنت تقدِرُ
وما أنت إلا عابِد الحرص والهوى تشمِّرُ ذيلَك للحُطام وتهجُرُ
رأيتُ لك الرؤيا وإنك مَيّتٌ وإنّ كلام الله لا تتغيَّرُ
وعِدَّةُ وعدِ الله عشرٌ وخمسةٌ إذا ما انقضتْ فاعلَمْ بأنك مُحضَرُ

وتعمى وتحضر عند ذي العرش مجرمًا وتُسأل عما كنتَ تهذي وتكفُرُ
وما قلتُ مِن تلقاء نفسي تجاسُرا بل الآن نبّأَني العليم المقدِّرُ
فبلّغتُ تبليغا وآليتُ حِلْفةً على صدقِ ما أظهرتُ فانظُرْ وننظُرُ
فإنْ أكُ صدّيقًا فربّي يعزّني وإن أكُ كذّابًا فسوف أُحَقَّرُ
وأعلم أن مهيمني لا يضيعني وأعلم أن مؤيِّدي سوف يَنصُرُ
فتوقَّدَ السفهاء مِن أهل الهوى وكل امرئ عند التخاصم يُسبَرُ
ذوو فطنةٍ يدرُون بحثي وبحثه وما في السماء فسوف يبدو ويظهَرُ
وإن يُسلِمَنْ يَسلَمْ وإلا فميّتٌ وهذان منا آيتان ونشكُرُ
ووالله هذا مِن إلهي ومَن يعِشْ إلى أشهر مذكورة فسينظرُ
وتحت رداء الله روحي ومُهْجتي وما يعرفني أحد وربّي يُبصِرُ
ولستُ بربي كاذبا تاركَ الهدى ولستُ بربي كالذي هو يهذَرُ
وهنَّأني ربي بنهجِ محبة على ما تضوَّعَ مِسْكُ فتحي وعنبَرُ
وذلك من بركات روحِ رسولنا نبيٌّ له نور منير وأزهَرُ
رؤوفٌ رحيمٌ آمرٌ مانعٌ مَعًا بشيرٌ نذيرٌ في الكروب مبشِّرُ
له درجات لا شريكَ له بها له فيضُ خيرٍ لا تضاهيه أبحُرُ
تخيَّرَه الرحمن مِن بين خَلقه ذُكاءٌ بجلوته وبدرٌ منوّرُ
وكان جلالٌ في عَرانينِ وَبْلِه خَفَى الفأرَ مِن أنفاقهن المطِرُ
رؤوفٌ رحيمٌ كهفُ أممٍ جميعها شفيعُ الورى سَلَّى إذا ما أُضْجِروا
ألا ما هَرَفْنا في ثناء رسولنا له رتبةٌ فيه المدائحُ تُحصَرُ
وإن أمان الله في سبل هديه فطوبى لشخص يقتفي ما يؤمَرُ

سقى فَيْهَجَ العرفانِ كلَّ مصاحب فبنشوة الصهباء سُرُّوا وأَبْشَروا
وقد راح والمخلوقُ في ظلماته وجهلاته مثل الأوابد ينفِرُ
فأكملَهم قولاً وفعلاً ومِيسمًا وأيقظَهم فاستيقظوا وتطهَّروا
رسولٌ كريمٌ ضعَّف اللهُ شأنه وبدرٌ منيرٌ لا يضاهيه نيّرُ
وكافَحَ أَمْرَ المسلمين بنفسه وعلَّمهم سننَ الهدى فتبصَّروا
بأُمّته أحفَى من الأب بابنه شفيعٌ كريمٌ مشفِقٌ ومُحذِّرُ
فمن جاءه طوعًا وصدقًا فقد نجا ومَن أعرض عن أحكامه فيُدمَّرُ
ولم يتقدم مثلُه في كماله وأخلاقِه العليا ولا يتأخّرُ
فدَعْ ذكرَ موسى واترُكَنْ ابنَ مريمٍ ودَعِ العصا لما تراءى المفقَّرُ
له رتبةٌ في الأنبياء رفيعة فطوبى لقوم طاوعوه وخَيَّروا
وعسكرُه في كلّ حرب مبارِزٌ إذا ما التقى الجمعان فانظُرْ وننظُرُ
وجاء بقرآن مجيد مكمَّلٍ منيرٍ فنَوَّرَ عالَمًا وينوِّرُ
كتاب كريم حازَ كلّ فضيلة ويسقي كؤوسَ معارفٍ ويوفِّرُ
وفيه رأينا بيناتٍ من الهدى وفيه وجدنا ما يقي ويبصِّرُ
كعينٍ كَحيلٍ زُيِّنت صفحاته بناظرةٍ مِن عِيْنِ خُلدٍ يَنْظُرُ
طريٌّ طلاوتُه ولم تعفُ نقطةٌ لِما صانَه اللهُ القدير الموقِّرُ
فيا عجبًا مِن حسنه وجماله أرى أنه دُرٌّ ومِسكٌ وعنبرُ
وإن سروري في إدارة كأسه فهل في الندامى حاضرٌ مَن يكرِّرُ
وريَّاه قد فاق الحدائق كلها نسيم الصبا من شأنه تتحيَّرُ
إذا ما تلا من آية طالبُ الهدى يرى نوره يجري كعين ويمطُرُ

وفيه من الله اللطيف عجائبٌ أشاهده في كل وقت وأنظرُ
أيعجب مِن هذا سفيهٌ مشرَّدٌ وألهاه عن نور ظلام مكدَّرُ
إلى قوله يرنو الحكيم تلذذا ويُعرِض عنه الجاهل المتكبرُ
كتاب جليل قد تعالى شأنه يدافي رؤوسَ المنكرين ويَكسِرُ
هو السيف في أيدي رجالِ مَواطنٍ فلن يَعصِمَ دِرعٌ منه فوجا ومِغفَرُ
كلام يفُلُّ المرهفاتِ بحدّه يبشّرنا في كل أمر وينذِرُ
يُدَيَّةُ قومٍ مُنكرٍ مغلولةٌ وهُدَّت هراواهم وسُرُّوا وكُسِّروا
يباهون مِرِّيْحِينَ جهلا ونخوةً وسوف تراهم مدبِرين فتُبشِرُ
فدًى لك روحي يا حبيبي وسيدي فدًى لك روحي أنت وِردٌ مُنضَّرُ
وما أنت إلا نائب الله في الورى وأعطاك ربك هذه ثم كوثَرُ
ويعجز عن تحميد حسنك مؤمنٌ فكيف مُحمِّدُك الذي هو يُكفِرُ
يكفّرني شيخ وتتلوه أُمّةٌ وما إنْ أراه كعاقل يتدبرُ
يُري ظهره عند النضال كثعلبٍ وكالذئب يعوي حين يهذي ويهجُرُ
غبيٌّ عَتِيٌّ أضرمَ الجهلُ غَيْظَه كجُلمودِ صخرٍ جهلُه لا يُغيَّرُ
وكفّرني بالحقد مِن غير مرّة فقلتُ لك الويلات إنك أكفَرُ
ويسعى لإيذائي ويسعى بزوره عليّ حريص كالعدا لو يقدرُ
عجبتُ له ما يتقي اللهَ ذرةً أَشِقْوةُ هذا المرء أمرٌ مقدَّرُ؟
فطورًا يردّ البينات وتارةً يحرّف قول المصطفى ويغيِّرُ
قصدتُ هداه ترحُّمًا فتمايَلا على الرجس والبلوى فكيف أطَهِّرُ
وقال يمين الله ما لك ناصر فآليتُ إن الله مَعْنا فنظفَرُ

ولما أريدُ علاجه مِن نصيحة ... يسبُّ ويُبدي كلَّ ما كان يُضمِرُ
وجاهدتُ للهِ الكريمِ لهديه ... فما قلَّ مِن أوهامه بل تكثُّرُ
عجبتُ لختم الله كيف أضلَّه ... يردّ النصوصَ كأنه لا يُبصِرُ
خيالاته كالنائمين ضعيفة ... نَؤُومٌ فيُبغِضُ كلَّ ما هو يُسهِرُ
وإنا نسهِّده ودادًا وشفقةً ... فيهجُونِ مِن جهل ولا يَتَخَفَّرُ
له كُتْبٌ السبُّ والشتمُ حَشْوُها ... شريرٌ فيستقري الشرور ويفخَرُ
يغوص كدلوٍ عند خوض فيرجعَنْ ... بحَمْإٍ وما يسقيه ماءً تفكُّرُ
بعيد من التقوى فتسمع أنه ... كباقورة الأضحى بِعيدٍ يُنحَرُ
لقد زيّن الشيطان أقواله له ... يوسوسه وقتا ووقتا يكوِّرُ
وأكفرَني بخلاً وجهلاً ودَنْأَةً ... ووافقَه خَلقٌ ضرير مُدَعْثَرُ
يقولون إنا قادرون على الأذى ... فقلنا اخسؤوا إن المهيمن أقدَرُ
فيا علماء السوء ما العذرُ في غد؟ ... أيُلْعن مثلي مسلمٌ ويكفَّرُ؟
وما غيظكم إلا لعيسى واسمه ... أيدعى بهذا الاسم شخص محقَّرُ
وما تعلمون شؤون ربي وفضله ... ويعلم ربي كل نفس وينظُرُ
أنعمة ربي في يديكم محاطة؟ ... ويفعل ربي ما يشاء ويُظهِرُ
أنحن نفرّ من النبي وبابه ... خَفِ اللهَ يا صيدَ الردى كيف تجسُرُ
أنترك قرآنا كريما ودُررَه ... فما لك لا تدري صلاحا وتَفجُرُ
أاخترتَ رجسا بعد خمسين حجّة؟ ... وقد كنتَ تشهد أن أحمَدَ أطهرُ
وتعلم أني حِذْرَيانٌ ومتَّقٍ ... وتعلَم زَأْرِ وبعدهُ تَتنمَّرُ
تبصَّرْ خصيمي هل ترى من دلائلٍ ... على ما تقول وفكِّرَنْ كيف تَكفُرُ

أنحن تركنا قبلةَ الله شقوةً؟ أنَنبِذُ صحفَ الله كفرًا ونهجُرُ؟
أنرغب عن دين النبي المصطفى؟ ودينًا مخالفَ دينه نتخيَّرُ
سيُخزي المهيمن كاذبا تاركَ الهدى كِلانا أمام الله واللهُ ينظُرُ
"وإني أنا الرحمن ناصرُ حزبه"• ومَن كان من حزبي فيُعلى ويُنصَرُ
وما كان أن تُخفَى الحقائقُ دائما وما يكتم الإنسان فالدهر يُظهِرُ
وليس خفاءٌ مغلَقٌ في ديننا وما جاء مِن هدي مبين فنؤثِرُ
سيُكشَف سرُّ صدورنا وصدوركم بيوم يقود إلى المليك ويَحْشُرُ
فمن كان يسعى اليوم في الدين مفسدا فيُحرَق في يومٍ لظاه تُسعَّرُ
وإنا على نور وأنتم على اللظى وما يستوي عُميٌ وقومٌ يُبصِّرُ
ومن كان محجوبا فيأتي مُوَسْوِسٌ فيَكُبّه في هوّة ويدمِّرُ
وما يصطفي اللهُ العليمُ مزوّرًا وما يجتبي الفُسّاقَ ربٌّ أطهَرُ
فذَرْني وخلّاقي ولستَ مصيطرا عليّ ولا حَكَمٌ وقاضٍ فتأمُرُ
وآثرَني ربي وأخزاك خالقي فقد ضاع يا مسكين ما كنتَ تَبذُرُ
أليست تقاة الله شرطا لمؤمن فما لك يومَ الأخذ لا تتذكرُ
وعدوتَ حتى قلتَ: لستُ بآئب وإن الهدى بعد القِلَى مُتوعِّرُ
أتُفتي بما لم يُنزل الله مِن هدى؟ وتُكفِر مَن ألقى السلام وتَجسُرُ؟
ووالله بل تالله لو كنتَ مخلصا أريتُك آياتٍ ولكن تُزوِّرُ
ولو قبل إكفاري سألتَ أمانة لعمري هُدِيتَ وصرتَ شيخا يُصِرُ
ولكن ظننتَ ظنونَ سوءٍ بعجلةٍ كغُولٍ هوًى والغولُ لا يتطهَّرُ

• ورد تحت هذا الشطر: "هذا إلهام من الله تعالى." (الناشر)

هل العلم شيء غير تعليم ربنا ... وأيّ حديث بعده نتخيرُ
كتابٌ كريمٌ أُحكمتْ آياته ... وحياته يحيي القلوبَ ويُزهِرُ
يدُعُّ الشقيَّ فلا يمسُّ نكاته ... ويروي التقيَّ هدًى فينمو ويثمرُ
ومتَّعني مِن فيضه لطفُ خالقي ... فإني رضيعُ كتابِه ومُخَفَّرُ
كريمٌ فيؤتي من يشاء علومَه ... قديرٌ فكيف تكذبَنَّ وتَهكِرُ
وإني نظمتُ قصيدتي من فضله ... لتعلم فضلُ الله كيف يُخيِّرُ
تعال بميدان النضال شجاعةً ... ليظهَرَ علمك في الجدال وتُسبَرُ
تريدون ذلتنا ونحن هوانَكم ... فيُكرم ربي من يشاء وينصُرُ
أتطلب مني آية الخزي والردى ... ويأتيك أمرُ الله فَجْأً فتُبْتَرُ
وحمّدتَني من قبلُ ثم ذممتَني ... فقد لاح أنك خَيْتَعُورٌ مزوِّرُ
وإني أنا الخطَّار إن كنتَ طاعنا ... رماحي مثقّفة وسيفي مُذَكَّرُ
وإنا جَهَرْنا بِثْرَ دينِ محمد ... وأنت تسبّ هوًى وفي السب تجهَرُ
متى نَدنُ منك ترحمًا تتباعدُ ... ونريد حل العقد رُحْمًا فتَحْتَرُ
وسيلُك صعبٌ لكن أنت غثاؤه ... وغيثك جِمْرٌ لكن أنت تُدَعْثَرُ
وما إن أرى فيك التخوفَ والتقى ... وإن الفتى يخشى إذا ما يُذْعَرُ
ومن كذّب الصدّيق هُتّكَ سرُّه ... ومن أكثر التكفير يوما سيُكفَرُ
وإن تضربَنَّ على الصَّلاة زجاجةً ... فلا الصخرُ بل إن الزجاجة تُكسَرُ
فهل في أناس مُكفِرين مدبِّرٌ ... يدبِّر في قولي وفي الكتب ينظُرُ
ووالله إني آيسٌ مِن صلاحهم ... وما إن أرى شخصا يكفّ ويحذَرُ
وقلتُ لشيخ قد تقدّمَ ذكرُه ... إلامَ تكفّرنا وتهجو وتصْعَرُ

تعال نباهِلْ في مقامٍ معيّن ليُهلَك من هو كاذب ومزوِّرُ
حلفتُ يمينا مِن لِعانٍ مؤكّد فإني بميدان اللعان سأحضرُ
فإذا أتى بعد الترصد يومنا فقمتُ ولم أكسل وما كنت أقصُرُ
خرجنا وخَلقٌ كان يسعى وراءنا لينظر كيف يباهلنْ ويكفِّرُ
فجاء ولكن لم يباهل مخافةً وأعرضَ حتى لام من هو يُبصِرُ
ولم يتمالك أن يباهل كالفَتَى وظل يُرينا ظهرَ جُبنٍ ويُدبِرُ
وجاشت إليه النفس خوفا وخشية وقد خفتُ أن يُغشى عليه ويُخطَرُ
ووجدتُه بحرًا ومُوجِسَ خيفةٍ كأن حسامي يهجُمَنْ ويبتِّرُ
فقلتُ له لما أبى إن حجّتي لقد تمّ واللهُ العليم سيأمُرُ
وإن شئتَ سَلْ مَن كان فينا حاضرا وما قلتُ إلا ما هو المتقرِّرُ
وباهلَني مِن غَزْنَوِيّين مُكفِرٌ وقوفا لدى شجرات أرض يَشجُرُ
فقمتُ بصحبي للدعاء مباهلا وكان معي ربي يراني وينظرُ
فصَعَّد صرخ الصادقين إلى السما لِما أخذتْهم رقّةٌ وتأثُّرُ
فأعجبَ خلقًا جيشُهم وبكاؤهم فبكوا بِمَبْكاهم وقام المحشرُ
وظلّ المباهل يقذِفَنَّ مكفِّرًا فيا عجبًا مِن دينهم كيف كفّروا
وما الكفر إلا ما يسمّيه ربُّنا فذَرْهم يسبّوا كيف شاءوا ويُكفِروا
وإنا توكّلْنا على الله ربّنا وقد شَدَّ أَزْرَ العبد ربٌّ مبشِّرُ
وآخر دعوانا أن الحمد كله لربٍّ يرى حالي وقالي وينصرُ

القصيدة الثالثة

المباركة الطيبة في نعت رسول الله ﷺ

بِكَ الحولُ يا قيومُ يا منبعَ الهدى — فوفِّقْ لي أن أثني عليك وأحمدا
تتوب على عبد يتوب تندُّمًا — وتنجي غريقًا في الضلالة مُفسدا
كبير المعاصي عند عفوك تافهٌ — فما لك في عبدٍ ألَمَّ تردُّدا
تحيط بكنهِ الكائنات وسِرِّها — وتعلم منهاج السِّوى ومُحَرَّدا
ونحن عبادك يا إلهي وملجئي — نخرّ أمامك خشيةً وتعبُّدا
وما كان أن يخفى عليك نُحاسُنا — وتعلم ألوان النحاس وعَسْجَدا
وكم مِن دَهِيٍّ أهلكتهم من شرورهم — وأخذتَهم وكسرتَ دَأْيًا مُنضَّدا
وكم مِن حقير في عيونٍ جعلتَهم — بأعينِ خَلقٍ لؤلوءا وزَبرجَدا
وتعمُر أطلالا بفضل ورحمةٍ — وتَهُدّ مِن قهرٍ منيفًا مُمَرَّدا
وما كان مِثلُك قدرةً وترحمًا — ومثلُك ربي ما أرى متفردا
فسبحان مَن خلَق الخلائق كلها — وجعل كشيء واحد متبددا
غيورٌ يُبيد المجرمين بسخطه — غفور ينجّي التائبين من الردى
فلا تأْمَنَنْ مِن سخطه عند رحمه — ولا تيئسَنْ من رُحمه إن تَشدَّدا
وإن شاء يبلو بالشدائد خَلْقَه — وإن شاء يُعطيهم طريفًا ومُتْلَدا
وحيدٌ فريد لا شريكَ لذاته — قويٌّ عليٌّ في الكمال توحَّدَا
ومن جاءه طوعا وصدقا فقد نجا — وأُدْخِلَ وِردًا بعد ما كان مُلْبَدا

له الملك والملكوت والمجد كله وكلٌّ له ما لاح أو راح أو غدا
ومن قال إن له إلها قادرا سواه فقد تبع الضلالة واعتدى
هدى العالمين وأنزل الكتب رحمةً وأرسل رسلا بعد رسل وأكّدا
وأنت إلهي مأمني ومفازتي وما لي سواك معاونٌ يدفع العدا
عليك توكلنا وأنت ملاذنا وقد مسَّنا ضُرٌّ وجئناك للندى
ولك آيات في عباد حمدتَهم ولا سيّما عبدٌ تسمّيه أحمداﷺ
له في عبادة ربه غَلْيُ مِرجَلٍ وفاقَ قلوب العالمين تعبُّدا
ومِن وجهه جَلَّى بعيدًا وأقربًا وأصاب وابلُه تِلاعًا وجَدْجَدا
له آيتا موسى وروحُ ابنِ مريمٍ وعرفانُ إبراهيمَ دينًا ومَرْصَدا
وكان الحجاز وما سواه كميّتٍ شفيع الورى أحيا وأدنى المبَعَّدا
وكان مُكاوَحةٌ وفسقٌ شعارَهم يُباهُون مِرِّيحِين في سبل الردى
فلم يبق منهم كافر إلا الذي أصرَّ بشِقْوته على ما تعوَّدا
شريعته الغرّاء مَورٌ معبَّدٌ غيورٌ فأحرقَ كلَّ دَيْر وجَلْسَدا
وأتى بصحف الله لا شك أنها كتاب كريم يرفِد المسترفِدا
فمن جاءه ذلا لتعظيم شأنه فيعطى له في حضرة القدس سؤددا
فيا طالبَ العرفان خُذْ ذيلَ شرعه ودَعْ كلَّ متبوعٍ بهذا المقتدى
يزكّي قلوب الناس مِن كل ظلمة ومن جاءه صدقا فنوّره الهدى
ولما تجلّى نوره التام للورى ولَوَّحَ وجه المنكرين وسوَّدا
تراءى جمال الحق كالشمس في الضحى ولاح علينا وجهه الطلق سرمدا
وقد اصطفيتُ بمُهْجتي ذكرَ حمده وكافٍ لنا هذا المتاع تزوُّدا

وفوّضني ربي إلى فيض نوره فأصبحتُ مِن فيضان أحمدص أحمدا
وهذا من الله الكريم المحسنِ وما كان من ألطافه مستبعَدا
ووالله هذا كله من **محمد**ص ويعلم ربي أنه كان مرشدا
وفي مُهْجتي فورٌ وجيشٌ لأمدحا سُلالةَ أنوار الكريم **محمدا**ص
كريم السجايا أكملُ العلم والنهى شفيع البرايا منبع الفضل والهدى
تبصَّرْ خصيمي هل ترى مِن مشاكهٍ بتلك الصفات الصالحات بأحمدا
بشير نذير آمرٌ مانع معًا حكيم بحكمته الجليلة يُقتدى
هدى الهائمين إلى صراطٍ مقوَّم ونوّر أفكار العقول وأيّدا
له طلعةٌ يجلو الظلامَ شعاعُها ذُكاءٌ منير بُرجُه كان بُرْجُدا
له درجات ليس فيها مشارِكٌ شفيع يزكّينا ويدني المبَعَّدا
وما هو إلا نائب الله في الورى وفاق جميعا رحمةً وتودُّدا
تخيَّرَه الرحمن مِن بين خلقه وأعطاه ما لم يُعْطَ أحد من الندى
وقدكان وجه الأرض وجهًا مسوَّدا فصار به نورًا منيرا وأغيَدا
وأرسله الباري بآيات فضله إلى حزبِ قوم كان لُدًّا ومفسِدا
ومُلْكٍ تأبَّطَ كلَّ شرٍّ قومُه وكلٌّ تلا بغيًا إذا راح أو غدا
بِلُوبَةِ مكةَ ذاتِ حِقْفٍ عَقَنْقَلٍ بلادٌ ترى فيها صفيحا مُصَمَّدا
وما كان فيها من زروع ودوحة تُرى كالظليم ثراه أزعَر أربَدا
تكنَّفَ عَقْوةَ داره ذاتَ ليلة جماعةُ قوم كان لُدًّا ومفسدا
فأدركه تأييدُ ربٍّ مهيمن ونجّاه عونُ الله من صولة العدا
تذكرتُ يوما فيه أُخرِجَ سيدي ففاضت دموع العين مني بمنتدى

إلى الآن أنوارٌ ببُرقَةِ يثرِب ... نشاهد فيها كل يوم تجدُّدا
فوجهُ المدينة صار منه منوّرا ... وبارَكَ حُرَّ الرمل وَطِئًا وقَردَدا
حِفافَيْ جناني نُوّرا مِن ضيائه ... فأصبحتُ ذا فهم سليم وذا الهدى
وأرسلني ربي لتأييد دينه ... فجئتُ لهذا القرن عبدا مجدِّدا
له صُحْبةٌ كانوا مجانينَ حُبّه ... وجعلوا ثرى قدميه للعين إثْمَدا
وأرَوا نشاطا عند كل مصيبة ... كعَوْجاءَ مِرقالٍ تُواري تَخدُّدا
وإذا مُرَبِّينا أهابَ بغنمه ... فراعُوا إلى صوت المهيب تودُّدا
وكان وصال الحق في نيّاتهم ... وخطراتهم فلأجله مَدُّوا اليدا
ورأوا حياة نفوسهم في موتهم ... فجاءوا بميدان القتال تجلُّدا
وجاشت إليهم من كروبٍ نفوسُهم ... وأنذرَهم قوم شقيٌّ تهدُّدا
فظلوا ينادون المنايا بصدقهم ... وما كان منهم مَن أبى أو تردَّدا
وفاضت لتطهير الأناس دماؤهم ... من الصدق حتى آثر الخَلقُ مَرصَدا
وأحيَوا لياليهم مخافةَ ربهم ... وأذابهم يومٌ يُشيِّب ثَوهَدا
تَناهَوا عن الأهواء خوفا وخشية ... وباتوا لمولاهم قِياما وسُجّدا
تلقَّوا علوما من كتاب مقدس ... حكيم فصافاهم كريم ذو الندى
كنوقٍ كرائمَ ذاتِ خُصْلٍ تجلَّدوا ... وتربَّعوا كلاءَ الأسِرَّة أغيَدا
أتعرف قوما كان ميتًا كمثلهم ... نَؤومًا كأموات جَهولا يَلَنْدَدا
فأيقظَهم هذا النبي فأصبحوا ... منيرين محسودين في العلم والهدى
وجاءوا ونورٌ من وراءٍ يسوقهم ... إليه ونورٌ من أمامٍ مُقوِّدا
ولو كُشف باطنهم نرى في قلوبهم ... يقينًا كطبقات السماء مُنضَّدا

تداركَهم لطفُ الإله تفضلا وزكّى بروح منه فضلاً وأيّدا
ففاقوا بفضل الله خَلْقَ زمانِهم بعلم وإيمان ونور وبالهدى
وهذا من النور الذي هو أحمدُ^ص فدًى لك روحي يا محمد^ص سرمَدا
أُمِرتَ من الله الذي كان مرشدا فأحرقتَ بدعاتٍ وقوَّمْتَ مَرْصَدا
وجئتَ لتنجية الأنام من الهوى فواهًا لِمُنْجٍ خلّص الخَلق مِن رَدَى
وتورَّمَتْ قدماك لله قائما ومثلك رجلا ما سمعنا تعبُّدا
جذبتَ إلى الدين القويم بقوة وما ضاعت الدنيا إذا الدين شُيِّدا
وأرسلَك الباري بآيات فضله لكي تُنقذ الإسلام مِن فتن العِدا
يحبّ جناني كلَّ أرض وطِئْتَها فيا ليت لي كانت بلادك مولدا
وأكفرَني قومي فجئتك لاهفًا وكيف يُكفَّرُ مَن يوالي محمدا^ص
عجبتُ لشيخ في البطالة مفسدٍ أضلّ كثيرا بالشرور وبَعَّدا
سَلُوه يمينًا هل أتاني مباهِلا وقد وعَد جزمًا ثم نكث تعمُّدا
فخُذْ يا إلهي مثلَ هذا المكذِّبِ كأَخْذِك مَن عادى وليًّا وشدّدا
أضلَّ كثيرا من صراطٍ منوّر تباعدَ من حق صريح وأبعدا
قد اختار مِن جهل رضاءَ خلائقٍ وكان رضى الباري أهمَّ وأَوْكَدا
وما كان لي بغضٌ وربّيَ شاهدٌ وفي الله عادَيناه إذ حال مَرصَدا
يسبّ وما أدري على ما يسبّني أيُلعَن مَن أحيا صلاحا وجدَّدا
نعَمْ نشهدَنْ أن ابنَ مريم ميّتٌ أهذا مقال يجعل البَرَّ مُلحِدا؟
وهل من دلائلَ عندكم تُؤثِرونها فإن كان فأْتوني بتلك تجلُّدا
أنحنُ نخالف سبلَ دينِ نبينا؟ وقد ضل سعيًا مَن قَلَى دينَ أحمدا

سيُكشَف سِرُّ صدورنا وصدوركم بيومٍ يسوّد وجهَ مَن كان مفسِدا
فمن كان يسعى اليوم في الأرض مفسدا فيُحرَق في يوم النشور مُزوَّدا
أليس تقاةُ الله فيكم كذرّةٍ؟ أتخشون لومةَ حَيِّكم ومُفنِّدا
وقد كان ربي قدّر الأمرَ رحمةً فَحُصْتُ بإذن الله ثوبًا مُقدَّدا
رأيتُ تغيُّظكم فلمْ آلُ حجّةً ووطّأتُ ذوقًا أَمْعَزًا متوقِّدا
ولستُ بذي علم ولكن أعانني عليم رآني مستهاما فأيّدا
ووالله إني صادق غيرُ مفترٍ وأيّدني ربي وما ضاعني سُدًى
وما قلتُ إلا ما أُمِرتُ بوحيه وما كان هَجْسٌ بل سمعتُ مُندِّدا
أأكتُمُ حقًّا كالمداجي المخامِرِ مخافةَ قوم لا يريدون مَرصَدا
تعالى مقامي فاختفى من عيونهم وربي يرى هذا الجَنان المجرَّدا
وفي الدين أسرار وسبلٌ خفيّة يلاحظها من زاده الله في الهدى
وهذا على الإسلام أدهى مصائبٍ يُكفَّرُ مَن جاء الأنامَ مجدِّدا
أتُكفِرُ رجُلا قد أنار صلاحه؟ ومثلك جهلاً ما رأيتُ ضَفَنْدَدا
أتُكْفِر رجلا أيّد الدينَ حجّةً ودافَ رؤوس الصائلين وأرجَدا
أنحن نفرّ من الرسول ودينه؟ ويبدو لكم آياتُنا اليوم أو غدا
ووالله لولا حُبُّ وجهِ محمدٍ[ص] لما كان لي حولٌ لأمدح أحمدا[ص]
ففي ذاك آياتٌ لكلّ مكذّبٍ حريص على سبٍّ وألوَى كالعدا
وكم من مصائب للرسول أذوقُها وكم من تكاليف سئمتُ تودُّدا
وغمٍّ يفوق ظلامَ ليلٍ مظلم وهولٍ كليل السَّلْخ يُبدي تَهَدُّدا
وضُرٍّ كضرب الفأس أصلتَ سيفَه وخوفٍ كأصوات الصراصر قد بدا

فأسأمُ تلك المحنَ مِن ذوق مُهْجتي وأسأل ربي أن يزيد تشدُّدا
وموتي بسبل المصطفى خيرُ مِيتةٍ فإنْ فزتُها فسأُحْشَرَنْ بالمقتدى
سأدخلُ مِن عشقي بروضةِ قبره وما تعلم هذا السرّ يا تاركَ الهدى

القصيدة الرابعة

ألا أيها الواشي إلامَ تكذِّبُ وتُكفِرُ مَن هو مؤمن وتُؤنِّبُ
وآليتُ أني مسلمٌ ثم تُكفِرُ فأين الحيا أنت امرؤٌ أو عقرَبُ؟
ألا إنني تِبرٌ وأنت مُذهَّبٌ ألا إنني أسدٌ وإنك ثعلبُ
ألا إنني في كل حرب غالبٌ فكِذْني بما زوّرتَ والحقُّ يغلِبُ
وبشَّرني ربي وقال مبشّرًا ستعرف يومَ العيد والعيدُ أقربُ
ونعَّمني ربي فكيف أرُدّه وهذا عطاء الله والخَلقُ يعجَبُ
وسوف ترى أني صَدوقٌ مؤيَّدٌ ولستُ بفضل الله ما أنت تحسَبُ
ويبدي لك الرحمن أمري فينجلي أهذا ظلامٌ أو مِن الله كوكبُ
يرى الله ما هو مختفٍ في قلوبنا فيفضَح من هو كاذبٌ ويكذِّبُ
ويعلم ربي من هو الشرّ مَنزِلاً ومن هو عند الله بَرٌّ مقرَّبُ
إلامَ ترى زُورًا كصدقٍ ممحَّضٍ وتستجلب الحمقى إليه وتجذبُ
وقاسمتَهم أن الفتاوى صحيحةٌ وعليك وِزرُ الكذب إن كنت تكذِبُ
وهل لك مِن علمٍ ونصٍّ محكم على كفرنا أو تخرِصَنَّ وتَتغَبُ
كمثلك أممٌ قد أُبيدوا بذنبهم فتَحَسَّسَنْ مِن نبئهم ما أُعقِبوا
أتُغدِف في حربي قناعًا دوننا وتترك ما أمّمتَ جُبنًا وتهرُبُ
وما البحث إلا ما علمتَ وذُقتَه وتلك وِهادٌ للمنايا تُقوِّبُ
وما في يديك بغير فلسٍ مُذهَّب تُضِلّ أُمَيمًا بالسراب وتخلُبُ

وشاهدتُ أنك لستَ أهلَ معارفٍ	وتلهو وتهذي كالسكارى وتلعبُ
متى نُبْدِ أخلاقًا فتُبْدِ ذميمةً	وتترك ما هو مستطابٌ وأطيبُ
وعاديتني وطويتَ كشحًا على الأذى	ورميت حقدًا كل ما كنتَ تَجعَبُ
وكنتَ تقول سأغلبنّ بحجّتي	وما كنتَ تدري أنك اليوم تُغلَبُ
ولستُ بعادٍ مسرف بل إنني	عَروفٌ على إيذائكم أتحبّبُ
وإني أمامَ اللهِ في كل ساعة	وينظر ربي كلَّ ما هو أكسَبُ
فإن كنتَ عاديتَ الخبيث تديُّنًا	فتُكرَمُ عند مليكنا وتُقرَّبُ
وإن كنتَ قد جاوزتَ حدَّ تورُّعٍ	وقفوتَ ما لم تعلمنّ فتُعتَبُ
فسوف ترى في هذه ضربَ ذلّةٍ	ويومُ نكال الله أخزى وأعطَبُ
ومَن كان لاعِنَ مؤمنٍ متعمدًا	فعليه ذلّةُ لعنة لا تَنكُبُ
أتأمر بالتقوى وتفعل ضده	وتنكث عهدًا بعد عهد وتهرُبُ
ولي لك في أعشار قلبي لوعةٌ	فكفِّرْ وكذِّبْ إنني لست أغضَبُ
ألا أيها الشيخ اتق اللهَ الذي	يهدّ عماراتِ الهوى ويخرّبُ
إذا ما توقَّدَ قهره يهلك الورى	فما حِيصَ مِن ابن حُسام يعضبُ
أتعوي كمثل الذئب واللهِ إنني	أراك كأنك أرنبٌ أو ثعلبُ
وما إن أرى في خيط كبدك قوةً	ويُصلح ربي ما تَهُدُّ وتشغَبُ
ألم تعرفَنْ رؤياي كيف تحققت	وأصدقُ رؤيًا مؤمنٌ لا يُكذَّبُ
ويأتيك من آثار صدقي بكثرة	فليرقُبَنْ أوقاتها المترقِّبُ
فإن كنتُ كذّابًا فأنت منعَّمٌ	وإن كنتُ صدّيقًا فسوف تُعذَّبُ
أتُكفِرني في أمر عيسى تجاسرًا	وكذّبتني خِطأً ولستَ تُصوِّبُ

تُوفِّيَ عيسى هكذا قال ربنا صريحًا فصدَّقْنا ولا نتريَّبُ
وكيف نكذِّب آيةً هي قوله وتصديق كلمته أهمُّ وأوجبُ
نَهَى خالقي أن نُحْيِيَنَّ ابنَ مريمٍ وتلك التي كفَّرتَ منها وتَنصَبُ
ولم يبق لي في موته ريحُ ريبة لِما ألهَمَني ملكٌ صدوقٌ مؤوِّبُ
أقول ولا أخشى فإني مثيله ولو عند هذا القول بالسيف أُضرَبُ
ووالله إني جئتُ حين مجيئه وهو فارسٌ حقًا وإني مُحقِبُ
وقد جاء في القرآن ذكرُ وفاته وما جاء فيه هو الذي هو أصوَبُ
ولو كان في القرآن أمرٌ خِلافَه لآثرتُه دينًا ولا أتجنَّبُ
ولكن كتاب الله يشهد أنه تناوَلَ مِن كأس المنايا فتعجَبُ
أمِن غير منبع هديه نطلب الهدى وكلٌّ من الفرقان يُعطى ويوهبُ
فنؤمن بالله الكريم وكُتبه فأين بحقدك يا مكفِّرُ تذهبُ
ويعلم ربي كلَّ ما في عَيبتي عليمٌ فلا يخفى عليه مغيَّبُ
وهذا هدى الله الذي هو ربنا فإن كنتَ ترغَب عن هدًى لا نرغَبُ
وإن سراجي قوله وكتابه فإن أعْصِه فسناه مِن أين أطلُبُ؟
وإن كتاب الله بحرُ معارفٍ ونجدنْ فيه عيونَ ما نستعذبُ
وكم من نكات مثل غِيدٍ تمتَّعَتْ بها مُهْجتي مِن هدي ربي فجَرِّبوا
إذا ما نظرتُ إلى ضياء جماله فإذا الجمال على سنا البرق يغلِبُ
رأيتُ بنورٍ نورَه فتبيَّنتْ عليَّ حقائقه ففيها أُقلِّبُ
يصدّ عن الطغوى ويهدي إلى التقى خفيرٌ إلى طرق السلامة يجلِبُ
يجرّ إلى العليا وجاء من العلى كما هو أمرٌ ظاهرٌ ليس يُحْجَبُ

وسرٌّ لطيفٌ في هداه ونكتةٌ كنجمٍ بعيد نورها تتغيبُ
ومن يأته يُقبَلْ ومن يُهدَ قلبُه إلى مأمنِ الفرقان لا يتذبذبُ
يُضيء القلوب ويدفَعنّ ظلامَها ويشفي الصدور سوادُه ويهذِّبُ
فقلتُ له لما شربتُ زلاله فدًى لك روحي أنت عيني ومشرَبُ
وكم مِن عَمِيٍّ قد كشفتَ غطاءهم ونجّيتَهم عما يعفّي ويَشغَبُ
ألا رُبَّ خصمٍ خاضَ فيه عداوةً فألهاه عن خوضٍ سناه المؤنِّبُ
وإن يفتَحنْ عينيك وهّابُ الهدى فكاينْ ترى مِن سرِّهِ لك معجِبُ
وأنَّ لِعقل الناس نور كنوره وإن النهى ببيانه يتهذَّبُ
ووالله يجري تحته نهرُ الهدى ومَن أكثر الإمعان فيه فيشرَبُ
ومن يمعن الأنظار في ألفاظه فإلى سناه التام يَصْبُ ويُسْحَبُ
ومن يطلب الخيراتِ فيه ينَلْنَهُ ويرى اليقينَ التام والشكُّ يهرُبُ
ومن يطلُبَنْ سبلَ الهدى في غيره يكُنْ سعيه لعنًا عليه فيُعطَبُ
ومن يعصِ فرقانًا كريمًا فإنه يُطعِ السعيرَ وفي الجحيم يُقلَّبُ
وما العقل إلا خَبْط عشواءَ ما يُصِبْ يجِدْه وما يُخطي فيهذي ويلغَبُ
ومهما تكُنْ من عين ماءٍ باردٍ تراه حثيثًا عينُ صادٍ فيشرَبُ
وقد جئتُ بالماء المِعين وعَذْبِه فأين النهى لا تشربَنْ وتُثرَّبُ
وسوف يريك الله نورَ تطهُّري ويُريك مَن منا صَدوقٌ وطيّبُ
خَفِ اللهَ عند الطعن في أوليائه أولئك قومٌ مَن قلاهم فيُشجَبُ
تعال وتُبْ مما صنعتَ فإنني أُصانِعُ من يتلقَّ حُبًّا وأصحَبُ
ولستُ مُدَعْثِرَ مَن جفا بل إنني عَروفٌ على إيذائكم أتحبَّبُ

وفي السلم والإسلام إني سابقٌ   وإذا تراميتم فسهمي مثقِّبُ
وإذا تضاربتم فسيفي قاطعٌ   وإذا تطاعنتم فرمحي مُذرَّبُ
وإن المزوّر لا ينجّيه مكرُه   وإن يخفَ في غار عميق فيُتْغَبُ
تذكَّرْ نصيحةَ غزنويٍّ صالحٍ   وعليك سبل الرفق والرفقُ أعذَبُ
وكم من أمور الحق قلّبتَ جرأةً   فسوف ترى يومًا إلى ما تُقلَّبُ
وإن كنتَ ذا علم فأَرِني كماله   وما ينفَعنْ بعد الغزاة تَصيُّبُ
وإني على علم وزدتُ بصيرةً   من الله في أمري وأنت مكذِّبُ
خَفِ اللهَ حَزمًا يا ابنَ مَرْءٍ أحبَّني   فدَعْ ما يلازمه عدوٌّ مخيَّبُ
وما يمنعنَّك من رجوع وتوبة   أآليتَ جهلاً حِلفةً فتُثَرَّبُ
وإن كنتَ ذا عسر وضَمْر مُعيَّلاً   فإن شاء ربي تُرزَقنّ فتُحظَبُ
ووالله إن شقاك هيَّج لي البكا   لدى عينِ إحياءٍ تموت وتُتغَبُ
ألا تعرِفنْ قصص الذين تمرّدوا   فما لك تدري سمَّ ذنبٍ وتُذنِبُ
أتُدامُ بين الأقربين كباطرٍ   وإن غداة البين أدنى وأقربُ
ومثلك جافٍ قد خلا ومكذِّبٌ   فأبادهم ربٌّ قديرٌ معذِّبُ
سيسلب منك الضعفُ والشيب قوةً   وما إن أرى عنك الغواية تُسلَبُ
فأكفِرْ وكذِّبْ أيها الشيخ دائمًا   وإني بفضل الله رجلٌ مهذَّبُ
وألهَمَني ربي وأعطى معارفًا   فبنوره الأجلى إلى الحق أندُبُ
أتغفل مِن قهر الحسيب وأخذِه   وتُذعِرنا مِن جَور خَلقٍ وتُرعِبُ
نجاتك من جذبات نفسك مشكلٌ   يُزلّ الغلامَ الخفرَ بَكْرٌ هَوزَبُ
إلى الله مرجعنا فيُظهِر خَبْأَنا   على الأشقياء وكلّ أمر مرتَّبُ

فقد كذّبوا بالحق لما جاءهم   فسوف يُريهم ربنا ما كذّبوا
وقد كُذّبتْ قبلي عبادٌ ذوو التقى   فصبروا على ما كُذّبوا وتَرقّبوا
فلما نسوا فحواءَ ما ذُكّروا به   أُسِفَّ وجوهُ قلوبهم ما قلّبوا
تَحامَونِ بالحقد المدمِّر كلّهم   وأَمَّهم الشيخُ السفيه المعجَبُ
وكيف أخاف عنادَ قوم مفنَّدٍ   ويَعْتامُني ربي عليهم ويصحَبُ
فأبغي رضا ربي وما أخشى العدا   ولحربِ أعداء الهدى أتأهبُ
ولكل نبأٍ مستقرٌّ معيّنٌ   وما تُبسَل نفسٌ قبل وقت يُكتَبُ
وإن هُدى الله العليم هو الهدى   ويعلم ما ندَعَنْ وما نحن نكسبُ
ويدري أناسًا كفّرونا وكذّبوا   إذا ادّاركوا لنضالهم وتحزَّبُوا
قلاني الورى حتى الأقاربُ كلهم   فمنهم كثعبان ومنهم عقربُ
وما نتقي حَرًّا بتلك الهواجرِ   وفي الله ما نؤذَى ونُرمَى ونُجذَبُ
وإني بحضرته أموت بفضله   فإن لم ينَلْنا العزُّ فالذلّ أطيبُ
ألا كلّ مجد قد طرحتُ كجيفةٍ   وفي كل أوقاتي إلى الله أُجلَبُ
وإليه أسعى مِن جناني ومُهْجتي   ولغيره مني القَلا والتجنّبُ
وإني أعيش بهذه كمسافر   وفي كل آن مِن هوى أتغرّبُ
وما لي إلى غير المهيمن رغبةٌ   وعن كل ما هو غير ربي أرغَبُ
ألا أيها الشيخ الذي يتجنبُ   ترى، إن تَتُبْ، مني الهوى والتحبّبُ
ولستُ براضٍ أن ألاعِنَ لاعنًا   فأختار نهج العفو والقلبُ مغضِبُ
رأيتُ بساتين الهدى مِن تذلّلٍ   وإني بآلامي عُذَيقٌ مُرجَّبُ
تسبّ وإن أعذِرْك فيما تسبّني   ولكن أمام الله تعصي وتُذنِبُ

تصول عليّ لهتكِ عرضي وأعتلي وأعطانيَ الرحمن ما كنتُ أطلبُ
ترى عزّتي يومًا فيومًا فتنشوي وتهذي كأنك بالهراوى تُضرَبُ
أرى أن نَشْزِي فيك كالرمح لاعجٌ ويُلاعجنَّك شأننا المترقَّبُ
ولو لم يكن في القلب غير تغيُّظٍ فلا القلب إلا جمرةٌ تتلهبُ
ولا تحسبنّ قلبي إلى الضغن مائلا تعاشيبُ أرضي خُلّةٌ وتحبُّبُ
كمثلك عادٍ ما رأيتُ ولاعنًا أقولُك قولٌ أم سِنانٌ مُذرَّبُ
أردتَ وبالي لكنِ الله صانَني تندَّمْ فقد فات الذي كنتَ تطلبُ
ولستَ عليّ مسيطرًا أو محاسبًا وما يعطينّ الربُّ أفأنت تسلُبُ
ترفَّقْ فإن الرفق للناس جوهرٌ وما يترُكنْ سيفٌ فبالرفق يُجلَبُ
ولا تشرَبنْ جهلاً أُجاجَ عداوةٍ ووالله إن السلم أحلى وأعذبُ
ومن كان لا يتأدبنْ مِن ناصح فله دواهي الدهر نِعمُ المؤدِّبُ
أيا لاعِني ما كنتُ بدعًا من الهوى لكل من العلماء رأيٌ ومذهبُ
عليّ لربّي نعمةٌ بعد نعمة فلا زلتُ في نعمائه أتقلّبُ
وإن رسول الله شمسٌ منيرةٌ وبعد رسول الله بدرٌ وكوكبُ
جرت عادة الله الذي هو ربنا يُري وجهَ نور بعد نور يذهَبُ
كذلك في الدنيا نرى قانونه نجوم السما تبدو إذا الشمس تغرُبُ
خَفِ اللّهَ يا من بارزَ الله مِن هوى وإن الفتى عند التجاسر يرهَبُ
ولا تطلُبنْ ريحانَ دنياك خِسّةً وشوكُ الفيافي منه أشهى وأطيبُ
يزيد الشقيَّ شقاوةً طولُ أمنِه ويُرخي المهيمن حبلَه ثم يجذِبُ
إذا ما قصدتُ إشاعة الحق في الورى صددتَ وتبدي كلّ خبث وتَثلِبُ

وأنت ترى الإسلامَ قفرًا كأنه ... مقابرُ أموات وأرضٌ سَباسِبُ
تصول العدا مِن جهلهم وعنادهم ... على صُحف مولانا وكلٌّ يكذّبُ
وهديٌ كسِمْطَي لؤلؤٍ وزبَرجَدٍ ... به الطفل يلهو مِن عناد ويجدِبُ
ومِن كل طرف تمطرنّ سهامُهم ... فهذا على الإسلام يومٌ عَصَبْصَب
نرى هذه مِن كل قوم بعيننا ... فتذرِف عينُ الروح والقلبُ يشجَبُ
فقمتُ فعاداني عِداي ومعشري ... فلي مِن جميع الناس لعنٌ مركَّبُ
ولم يبق إلا حضرة الوتر ملجأٌ ... ومِن باب خلّاق الورى أين أذهب؟
فإن ملاذي مستعانٌ يحبّني ... ويسقينِ من كأس الوصال فأشربُ
غيورٌ فيأخذ رأسَ خصمي إذا اعتدى ... غفورٌ فيغفر زلّتي حين أُذنِبُ
وإني بَرِيءٌ مِن رياحين غيرِهِ ... وعذابُ شوكٍ منه عذبٌ وطيّبُ
يحبّ التذللَ والتواضع ربُّنا ... ومن ينزلَنْ عن فرسِ كِبرٍ يركبُ
وللصابرين يوسّع الله رحمه ... ويفتح أبواب الجدا ويقرّبُ
تعرّفتُه حتى أتتْني معارفٌ ... وإن الفتى في سُؤْله لا يلغَبُ
رأيناه من نور النبي المصطفى ... ولولاه ما تُبْنا ولا نتقربُ
له درجاتٌ في المحبّة تامّةٌ ... له لمعاتٌ زال منها الغَيهَبُ
ذُكاءٌ منيرٌ قد أنار قلوبنا ... وله إلى يوم النشور معقِّبُ
وفي الليل بعد الشمس قمرٌ منوَّرٌ ... كما في الزمان نشاهِدنْ ونجرِّبُ
ولله ألطافٌ على من أحبَّه ... فوابِلُه في كلّ قرن يسكُبُ
وشِيمتُه قد أُفرِدتْ في فضائلٍ ... وقد فاق أحلامَ الورى أفتعجَبُ
ورعَى وآتَى الصحبَ لبنًا سائغًا ... وليس كراعي الغنم يرعى ويحلِبُ

وليس التُّقى في الدين إلا اتّباعه … وكل بعيد مِن هداه يُقرَّبُ
ولو كان ماءٌ مثل عسلٍ بطعمه … فواللهِ بحرُ المصطفى منه أعذَبُ
مدحتُك يا محبوبُ مِن صدق مُهْجتي … ولولاك ما كنّا إلى الشعر نرغَبُ
وإنا لجَئْنا في عطائك راغبًا … ومنَ جاء بابك سائلاً لا يُثرَّبُ
ووالله حُبُّك للنجاة لمؤمنٍ … دليلٌ وعنوانٌ فكيف نخيَّبُ
وآثرتُ حبّك بعد حبّ مهيمني … وتُصبي جناني مِن سناك وتجلِبُ
ونستصغر الدنيا وخضراءَها معًا … فلا نجتني منها ولا نُستخلبُ
ألا أيها الشيخ الذي أكفرتَني … وإني بزعمك كافرٌ ثم هَيدَبُ
فتلك بعون الله مني قصيدةٌ … محبَّرةٌ ونظيره منك أطلُبُ
وهذي ثلاثٌ قد نظمنا وهِدْيةٌ … ببحرٍ خفيف للأحباء أنسبُ
فإن كنتَ ذا علم فآتِ نظيرَها … وإنْ تعجزنْ جهلا فكِبرُك أعجبُ

تفسير سورة الفاتحة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خضعت الأعناقُ لكبريائه، وتحَيَّرت الأبصارُ من مجده وعلائه، المقدَّس عن الأنداد والأضداد والشركاء، المنزَّه عن الأشباه والأقران والنُظراء. هو الذي أرسل رسلا لإصلاح الورى، ونجّى كلَّ مَن قفا أثرهم واقتدى، واختار من اختار مَهْيَعَهم وتَبِعَهم وما انثنى، فرضِي عنه وثَنَى. والصلاة والسلام على سيد الرسل وخاتم الأنبياء، محمدٍ المصطفى الذي هو سيد قوم انكسرت إراداتهم البشرية، وأُزيلت حركاتهم الطبعية، وجرَتْ في بواطنهم الأبحر الروحانية، ونفخ الله فيهم روحه ووالى وصافى. هو إمامُ مَصاليت الله الذين خيَّبوا شيطانا ذا المكائد، حتى أخفق إخفاقَ الصائد، وهو الذي كفَّ عن العَيث والنَّزْء ذِيبًا أكَل غنم أنبياء بني إسرائيل، ونَسَأَ إلى الحق وعصَم وهَدَى، فالسلام على هذا الجَرِيّ البطل المظفَّر في الأولى والأخرى.

أما بعد.. فاعلم أرشدك الله تعالى أن هذا الكتاب بُلْغةٌ لكل من أراد أن يسلك في حدائق فاتحة الكتاب، ويعلم حقائق نِكاتِه وشاجِنةَ معارفه على نهج الصواب. وكل ما أودعتُه من درر البيان، فإني تفردتُ به من مواهب الله الرحمن، وفُهِّمتُ من الملهِمِ المنّان، وليس فيه شيء

من لُفاظات موائد المتقدمين، ولا من حُشارة ملفوظات السابقين، وحُثارِ الماضين، إلا النادر الذي هو كالمعدوم، وما عدا ذلك فهو من ربي الذي أسبغَ عليَّ مِن باكورة العطاء، وألهمني من نِكاتٍ ما لم تعط أحد من العلماء، ليشدّ أزْرِي ويضع عني وِزْري، ويؤيدني في إزراء القادحين، ويُتمّ حجّتي على المنكرين المستكبرين. فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله، هو ربنا وملجأنا، إنّا تُبْنا إليه وهو أرحم الراحمين.

واعلم أيها الناظر في هذا الكتاب أنا تركنا تفسير البسملة، ولم نكتب فيه شيئا، لأن تفسير الفاتحة قد أحاطت* بتفسيرها، وأغنى عنها ببيان مبين. والآن نشرع في المقصود متوكلين على الله النصير المعين.

﴿الْحَمْدُ للهِ﴾

هو الثناء باللسان على الجميل للمقتدر النبيل على قصد التبجيل، والكامل التام من افراده مختصٌّ بالرب الجليل، وكل حمدٍ من الكثير والقليل، يرجع إلى **ربنا** الذي هو هادي الضال ومُعِز الذليل، وهو محمود المحمودين.

* *يبدو أن التاء زيدت هنا سهوا، والصحيح: "أحاط". (الناشر)*

والشكر يُفارق الحمدَ بخصوصيته بالصفات المتعدية عند أكثر العلماء، والمدحُ يفارقه في جميلٍ غير اختياريٍّ كما لا يخفى على البُلغاء والأدباء الماهرين.

وإن الله تعالى افتتح كتابه بالحمد لا بالشكر ولا بالثناء، لأن الحمد يُحيط عليهما بالاستيفاء، وقد ناب منابَهما مع الزيادة في الرِّفاء وفي التزيين والتحسين. ولأن الكُفّار كانوا يحمدون **طواغيتهم** بغير حق، ويؤثرون لفظ الحمد لمدحهم ويعتقدون أنهم منبع المواهب والجوائز ومن الجوّادين؛ وكذلك كان **موتاهم** يُحمَدون عند تعديد النوادب، بل في الميادين والمآدب، كحمد الله الرازق المتولي الضمين؛ **فهذا ردٌّ** عليهم وعلى كل من أشرك بالله وذكرٌ للمتوسّمين. وفي ذلك يلوم الله تعالى **عَبَدةَ الأوثان** واليهود والنصارى وكل من كان من المشركين. فكأنه يقول أيها المشركون.. لِمَ تحمدون شركاءكم وتُطرُون كبراءكم؟ أهم أربابكم الذين **ربّوكم** وأبناءكم؟ أم هم **الراحمون** الذين يرحمونكم ويردّون بلاءكم، ويدفعون ما ساءكم وضَرَّاءكم، ويحفظون **خيرًا** جاءكم، ويَرحَضون عنكم قَشَفَ الشدائد ويداوون داءكم، أم هم مالِكُ **يوم الدين**؟ بل الله يُربّي ويرحم بتكميل الرفاء، وعطاء أسباب الاهتداء، واستجابة الدعاء، والتنجية من الأعداء، وسيعطي أجر العاملين الصالحين.

وفي لفظ "الحمد" إشارة أخرى وهي أن الله تبارك وتعالى يقول أيها العباد اعرفوني بصفاتي، وتعرّفوني بكمالاتي، فإني لست

كالناقصين، بل يزيد حمدي على إطراء الحامدين، ولن تجد محامدًا لا في السماوات ولا في الأرضين إلا وتجدها في وجهي، وإن أردتَ إحصاء محامدي فلن تحصيها، وإن فكّرتَ بشقّ نفسك وكلفت فيها كالمستغرقين. فانظر هل ترى مِن حمد لا يوجد في ذاتي؟ وهل تجد من كمال بُعِّدَ مني ومن حضرتي؟ فإن زعمت كذلك فما عرفتني وأنت من قوم عمين. بل إنني أُعرَف بمحامدي وكمالاتي، ويُرَى وابلي بسُحُبِ بركاتي، فالذين حسبوني مستجمِعَ جميعِ صفات كاملة وكمالات شاملة، وما وجدوا من كمال وما رأوا من جلال إلى جولانِ خيال، إلا ونسبوها إليَّ، وعزوا إليّ كل عظمة ظهرت في عقولهم وأنظارهم، وكلَّ قدرة تراءت أمام أفكارهم، فهم قوم يمشون على طرق معرفتي، والحق معهم وأولئك من الفائزين.

فقوموا.. عافاكم الله.. واستقرِئوا محامده عزَّ اسمه، وانظروا وأمعِنوا فيها كالأكياس والمتفكرين. واستنفِضوا واستشِفّوا أنظاركم إلى كل جهة كمال وتَحسَّسوا منه في قَيْض العالم ومُحِّه، كما يتحسس الحريص أمانيه بشُحّه، فإذا وجدتم كماله التام وريّاه، فإذا هو إيّاه، وهذا سرّ لا يبدو إلا على المسترشدين.

فذلكم ربكم ومولاكم الكامل المستجمِع لجميع الصفات الكاملة، والمحامد التامة الشاملة، ولا يعرفه إلا من تدبر في الفاتحة، واستعان بقلب حزين. وإن الذين يُخلصون مع الله نيّةَ العقد، ويعطونه صفقة

العهد، ويُطهّرون أنفسهم من الضغن والحقد، تُفتح عليهم أبوابها فإذا هم من المبصرين.

ومع ذلك فيه إشارة إلى أنه مَن هلَك بخطاه في أمر معرفة الله تعالى، أو اتخذ إلها غيره، فقد هلك مِن رفضِ رعاية كمالاته وتركِ التأنق في عجائباته، والغفلةِ عما يليق بذاته، كما هو عادة المبطلين. ألا تنظر إلى النصارى أنهم دُعوا إلى التوحيد، فما أهلكهم إلا هذه العلّة، وسوّلتْ لهم النفسُ المضلّة، والشهوة المزِلّة، أن اتخذوا عبدًا إلهًا، وارتضعوا عُقار الضلالة والجهالة، ونسوا كمال الله تعالى وما يجب لِذاته، ونحتوا لله البنات والبنين. ولو أنهم أمعنوا أنظارهم في صفات الله تعالى وما يليق له من الكمالات لما أخطأ توسُّمُهم وما كانوا من الهالكين. فأشار الله تعالى ههنا أن القانون العاصم من الخطأ في معرفة البارئ.. عز اسمه.. إمعانُ النظر في كمالاته، وتتبُّعُ صفات تليق بذاته، وتذكُّر ما هو أولى من جدوى، وأحرى من عدوى، وتصوُّرُ ما أثبتَ بأفعاله من قوّته وحوله وقهره وطَوْله، فاحفَظْه ولا تكنْ من اللافتين. واعلم أن الربوبية كلها لله، والرحمانية كلها لله، والرحيمية كلها لله، والحكم في يوم المجازاة كله لله، فإياك وتَأَبِّيك مِن مطاوعةِ مُربّيك، وكُنْ من المسلمين الموحّدين. وأشار في الآية إلى أنه تعالى مُنزّه مِن تجدُّد صفةٍ، وحُؤول حالةٍ، ولُحوق وصمةٍ، وحَوْرٍ بعد كَوْرٍ، بل قد ثبَت الحمد له أوّلا وآخرا، وظاهرا وباطنا، إلى أبد الآبدين. ومن قال خلاف ذلك فقد احْرَوْرَف وكان من الكافرين.

وقد علمتُ أن هذه الآية ردٌّ على النصارى وعَبَدةِ الأوثان، فإنهم لا يوفون الله حَقَّه، ولا يرجون له بَرْقَه، بل يُغدِفون عليه ستارة الظلام، ويلقونه في سبل الآلام، ويُبعدونه من الكمال التام، ويُشركون به كثيرا من المخلوقين. فهذا هو الظن الذي أرْداهم، والتقليد الذي أبادهم وأهلكهم، بما عوّلوا على أقوال المفترين، وزعموا أنهم من الصادقين. وقالوا إن هذه في الآثار المنتقاة المدوَّنة عن الثقات، وما تَوجَّهوا إلى عثر آبائهم، وجهلِ عُلمائهم، وتشريقهم وتغريبهم من مراكز تعاليم النبيين، وتَيْهِهم في كل واد هائمين. والعجب من فهمهم وعقلهم أنهم يعلمون أن الله كامل تام لا يجوز فيه نقصٌ وشُنْعَة وشحوب وذهول، وتغيُّرٌ وحُؤول، ثم يُجوِّزون فيه كثيرا منها، وينسبون إليه كلَّ شقوة وخسران، وعيب ونقصان، ويكذّبون ما كانوا صدّقوه أوّلاً ويهذون كالمجانين.

وفي لفظ الحمد لله تعليم للمسلمين أنهم إذا سُئلوا وقيل لهم من إلهكم.. فوجَب على المسلم أن يجيبه أن إلهي الذي له الحمد كله، وما مِن نوعٍ كمال وقدرة إلا وله ثابت، فلا تكن من الناسين. ولو لاحظَ المشركين حظُّ الإيمان، وأصابهم طلٌّ من العرفان، لما طاحَ بهم ظنُّ السوء بالذي هو قيّوم العالمين. ولكنهم حسبوه كرجل شاخَ بعد الشباب، واحتاج بعد صمديّته إلى الأسباب، ووقعت عليه شدائدُ نُحولٍ وقُحول، وقَشَفُ مُحول، ووقع في الإتراب، بل قرب من التباب، وكان من المتربين.

﴿رَبِّ العالمينَ * الرَّحْمَنِ * الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْم الدِّينِ﴾

اعلم أوّلاً أن العالم ما يُعلَم ويُخبَر عنه، وما يدل على الصانع الكامل الواحد المدبّر بالإرادة، ويلتَحِص الطالبَ إلى الإيمان به، وينصّه إلى المؤمنين.

وأما خبايا أسرارِ أسماءٍ ذكَرها الله تعالى في هذه الآيات، وأودعَها أنواعَ النِّكات، فأَصْغِ إليّ أكشِفْ لك قِناعها إن كنتَ استمحتَني وجئتني كالمخلصين. فاعلم أن هذه الصفات عيون لفيوض الله الكاملة النازلة على أهل الأرض والسماء، وكلُّ صفة منبعٌ لقسمِ فيضٍ بترتيبٍ أودع الله آثارها في العالم، ليُري توافُقَ قولِه بفعله وليكون آية للمتفكرين.

فالقسم الأول من أقسام الصفات الفيضانية صفةٌ يسمّيها ربّنا "رب العالمين". وهذه الصفة أوسعُ الصفات في الإفاضة، ولا بد من أن نسمّي فيضانها فيضانا أعمَّ، لأن صفة الربوبية قد أحاطت الحيواناتِ وغير الحيوانات، بل أحاطت السماوات والأرضين، وفيضانها أعمُّ من كل فيض، ما غادر إنسانا ولا حيوانا ولا شجرا ولا حجرا ولا سماءً ولا أرضا بل نزل ماؤه على كل شيء فأحياه، وأحاط بالكائنات كلها ظواهرِها وبواطنها، فكلُّ شيء صنيعةٌ من الله الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَه وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين. واسم ذلك الفيض ربوبيةٌ،

وبه يبذر الله بذر السعادة في كل سعيد، وعليه يتوقف استثمار الخيرات وبروز مادة السعادات، وآثار الورع والحزامة والتقاة وكل ما يوجد في الرشيدين. وكل شقي وسعيد، وطيب وخبيث، يأخذ حَظَّه كما شاء ربُّه في المرتبة الربوبية، فهذا الفيض يجعل من يشاء إنسانًا، ويجعل من يشاء حمارًا، ويجعل ما يشاء نُحاسًا، ويجعل ما يشاء ذهبًا، وما كان الله من المسؤولين.

واعلم أن هذا الفيض جارٍ على الاتصال بوجه الكمال، ولو فُرِض انقطاعه طرفةَ عين لفسدت السماوات والأرض وما فيهن، ولكن أحاط صحيحًا ومريضًا، ويَفاعًا وحضيضًا، وشجرًا وحجرًا، وكل ما في العالمين.

وقدّم الله هذا الفيض في كتابه وضعًا، لتقدُّمِه في عالم أسبابه طبعًا، فليس هذا التقديم محدودا في توشية الكلام، ومحصورا في رعاية الصفاء التام، بل هي بلاغة حِكمية لإراءة النظام، من حيث إنه تعالى جعل أقواله مرآةً لرؤية أفعاله الموجودة في طبقات الأنام، لتطمئن به قلوب العارفين.

والقسم الثاني من الصفات الفيضانية، صفة يسمّيها ربُّنا "الرحمن". ولا بد من أن نسمي فيضانه فيضانا عامّا ورحمانية، وله مرتبة بعد مرتبة الفيضان الأعمّ، وهو أخصّ من الفيضان الأول، ولا ينتفع منه إلا ذوو الروح من أشياء السماء والأرضين. وإن الله في وقت هذا الفيض لا ينظر الاستحقاقَ والعمل والشكر، بل يُنزله فضلا منه

على كل ذي روح.. إنسانا كان أو حيوانا، مجنونا كان أو عاقلا، مؤمنا كان أو كافرا، ويُنجّي كلَّ روح من هلكةٍ دانت منها بعدما كادت تهوي فيها، ويُعطي كلَّ شيء خَلقًا ينفعه، لأن الله جوّاد بالذات وليس بضنين. فكل ما ترى في السماء من الشمس والقمر والنجوم والمطر والهواء، وما ترى في الأرض من الأنهار والأشجار والأثمار، والأدوية النافعة والألبان السائغة، والعسل المصفّى، فكلها مِن رحمانيته ﷻ، لا مِن عمل العاملين. وإلى هذا الفيضان أشار الله تعالى في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ⭘، وفي قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَن عَلَّم الْقُرآنَ﴾ ⊙، وفي قوله تعالى: ﴿مَن يَكْلَؤُكُمْ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ ✸، وفي قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ﴾ ✪، تذكرةً للمتقين. ولو لم يكن هذا الفيضان لما كان لِطيرٍ أن يطير في الهواء، ولا لحوتٍ أن يتنفس في الماء، ولأبادَ كلَّ مُعِيل ضَفَفُه، وكلَّ ذي قَشَفٍ شَظَفُه، وما بقِي سبيل لإماطته كما لا يخفى على المستطلعين.

ألا ترى كيف يحيي الله الأرض بعد موتها؟ ويكوّر الليلَ على النهار ويكوّر النهارَ على الليل، وسخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجل مسمّى، إن في ذلك لآياتٍ رحمانية للمتدبرين. وجعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهارَ مبصِرًا، وجعل لكم الأرض قرارًا والسماء بناءً، وصَوَّرَكم فأحسَنَ صُوركم، ورزَقكم من الطيبات، فذلكم الرحمن ربكم

⭘ الأعراف:١٥٧ ⊙ الرحمن:٢-٣ ✸ الأنبياء:٤٣ ✪ الملك:٢٠

مُرِبِّي المساكين. والذين كفروا برحمانيته فجعلوا لله عليهم سلطانا مبينا، وما قدروا الله حق قدره وكانوا من الغافلين. ألا يرون إلى الشمس التي تجري من المشرق إلى المغرب؟ أكان خَلقها وجريها مِن عملهم أو مِن تفضُّل الرحمن الذي وسعتْ رحمانيته الصالحين والظالمين. وكذلك يُنزل الله ماءً في أوقاته، فينشئ به زروعا وأشجارا فيها فواكه كثيرة، أفهذه النعماء مِن عمل عامل أو رحمانية خالصة من الله تعالى الذي نجانا مِن كل اعتياص المعيشة، وأعطانا سُلّمًا لكل حاجة نحتاج فيها إلى الارتقاء، وأرشِيةً نحتاج إليها للاستسقاء. فسبحان الله الذي أنعم علينا برحمانيته، وما كان لنا من عمل نستحق به، بل خلَق نعماءه قبل أن نُخلَق، فانظر.. هل ترى مثله في المنعِمين؟

فحاصل الكلام أن الرحمانية رحمة عامة لنوع الإنسان والحيوان، ولكل ذي روح وكل نفس منفوسة، مِن غير إرادةِ أجرِ عملٍ ومِن غير لحاظِ استحقاقِ عبدٍ بصلاحه وتورُّعه في الدين.

والقسم الثالث من الصفات الفيضانية صفة يُسمّيها ربُّنا "الرحيم"، ولا بد من أن نسمّي فيضانها فيضانا خاصا ورحيميةً من الله الكريم للذين يعملون الصالحات ويشمّرون ولا يقصّرون، ويذكرون ولا يغفلون، ويبصرون ولا يتعامون، ويستعدّون ليوم الرحيل، ويتّقون سخط الرب الجليل، ويبيتون لربهم سُجّدًا وقيامًا، ويصبحون صائمين. ولا ينسون موتهم ورجوعهم إلى مولاهم الحق، بل يعتبرون بنعيٍ يُسمَع، ويرتاعون لإلفٍ يُفقَد، ويذكرون مناياهم من موت الأحباب، ويهولُهم

هَيْلُ التراب على الأتراب، فيلتاعون ويتنبهون، ويُريهم اخترامُ الأحبّة موتَ أنفسهم، فيتوبون إلى الله وهم من الصالحين.

فلعلّك فهمتَ أن هذا الفيضان ينزل من السماء على شريطة العمل والتورّع والسِّمَة الصالحة والتقوى والإيمان، ولا وجودَ له إلا بعد وجود العقل والفهم، وبعد وجود كتاب الله تعالى وحدوده وأحكامه، وكذلك المحرومون من هذه النعمة لا يستحقون عتابا ومؤاخذة من قَبْل هذه الشرائط. فظهَر أن الرحيمية تَوْءَمٌ لكتاب الله وتعليمه وتفهيمه، فلا يؤخذ أحدٌ قبله، ولا يُدرك أحدا عطبُ القهر إلا بعد ظهور هذه الرحيمية، ولا يُسأل فاسق عن فسقه إلا بعدها. فخُذْ هذا السرّ مني وهو ردٌّ على المتنصرين. فإنهم قائلون بلسع الذنب من آدم إلى انقطاع الدنيا، ويقولون إن كل عبد مذنبٌ سواء عليه بلَغه كتابٌ من الله تعالى وأُعطيَ له عقل سليم أو كان من المعذورين. وزعموا أن الله تعالى لا يغفر أحدًا إلا بعد إيمانه بالمسيح، وزعموا أن أبواب النجاة مغلقة لغيره، ولا سبيل إلى المغفرة بمجرد الأعمال، فإن الله عادل، والعدل يقتضي أن يعذّب من كان مذنبا وكان من المجرمين. فلما حصحص اليأس من أن تُطهَّر الناسُ بأعمالهم، أرسلَ إليهم ابنَه الطاهر ليَزِرَ وِزْرَ الناس على عنقه، ثم يُصلَب ويُنجّي الناس من أوزارهم، فجاء الابن وقُتل ونجّى النصارى، فدخلوا في حدائق النجاة فرحين.

هذه عقيدتهم، ولكن من نَقَدَها بعين المعقول ووَضعها على معيار التحقيقات، سلَكها مسلك الهذيانات. وإنْ تعجَب فما تجد أعجبَ

من قولهم هذا. لا يعلمون أن العدل أهمُّ وأوجب من الرحم، فمن ترك المذنب وأخذ المعصوم ففعَل فعلاً ما بقِي منه عدل ولا رحم، وما يفعل مثل ذلك إلا الذي هو أضل من المجانين.

ثم إذا كانت المؤاخذات مشروطة بوعد الله تعالى ووعيده فكيف يجوز تعذيب أحد قبل إشاعة قانون الأحكام وتشييده، وكيف يجوز أخذُ الأولين والآخرين عند صدور معصية ما سبَقها وعيدٌ عند ارتكابها، وما كان أحد عليها من المطّلعين. فالحق أن العدل لا يوجد أثره إلا بعد نزول كتاب الله ووعده ووعيده وأحكامه وحدوده وشرائطه.

وإضافة العدل الحقيقي إلى الله تعالى باطل لا أصل لها، لأن العدل لا يُتصوَّر إلا بعد تصوُّرِ الحقوق وتسليم وجوبها، وليس لأحد حق على رب العالمين. ألا ترى أن الله سخّر كل حيوان للإنسان وأباح دماءها لأدنى ضرورته، فلو كان وجوب العدل حقًّا على الله تعالى لما كان له سبيلٌ لإجراء هذه الأحكام، وإلا فكان من الجائرين. ولكن الله يفعل ما يشاء في ملكوته، يُعزّ من يشاء، ويُذلّ من يشاء، ويُحيي من يشاء، ويميت من يشاء، ويرفع من يشاء، ويضع من يشاء. ووجود الحقوق يقتضي خلاف ذلك، بل يجعل يداه مغلولة، وأنت ترى أن المشاهدة تُكذّبها، وقد خلق الله مخلوقه على تفاوُت المراتب، فبعض مخلوقه أفراسٌ وحمير، وبعضه جِمالٌ ونوق، وكلاب وذياب ونمور، وجعل لبعض مخلوقه سمعا وبصرا، وخلق بعضهم صُمًّا، وجعل بعضهم

عمين. فلأيّ حيوان حقٌّ أن يقوم ويخاصم ربَّه أنه لِمَ خلَقه كذا ولَم يخلقه كذا؟

نعمْ.. كتَب الله على نفسه حق العباد بعد إنزال الكتب وتبليغ الوعد والوعيد، وبشَّر بجزاء العاملين. فمن تبع كتابه ونبيه ونهى النفسَ عن الهوى فإن الجنة هي المأوى، ومن عصى ربه وأحكامه وأبى، فسيكون من المعذَّبين. فلما كان مَلاك الأمر الوعد والوعيد، لا العدل العتيد، الذي كان واجبا على الله الوحيد، انهدم من هذا الأصول• المنيفُ الممرَّدُ الذي بناه النصارى من أوهامهم. فثبت أن إيجاب العدل الحقيقي على الله تعالى خيال فاسد ومتاع كاسد، لا يقبَله إلا من كان من الجاهلين. ومن هنا نجد أن بناء عقيدة الكفّارة على عدل الله بناءٌ فاسد على فاسد، فتدبَّرْ فيه فإنه يكفيك لكسر صليب النصارى إن كنت من الناظرين.

واسم هذه الصفة في كتاب الله تعالى رحيمية كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ☆، وقال: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.* فهذا الفيضان لا يتوجه إلا إلى المستحق، ولا يَطلبُ إلا عاملا، وهذا هو الفرق بين الرحمانية والرحيمية، والقرآن مملوٌّ من نظائره، ولكن كفاك هذا القدر إن كنت من العاقلين.

• سهو، والصحيح: "الأصل". (الناشر)

☆ الأحزاب:٤٤ * الحجرات:٦

القسم الرابع من الفيضان.. فيضان نسمّيه فيضانا أخصّ ومظهرًا تامًّا للمالكية، وهو أكبر الفيوض وأعلاها، وأرفعها وأتمّها وأكملها ومُنتهاها، وثمرة أشجار العالمين، ولا يظهر إلا بعد هدم عمارات هذا العالم الحقير الصغير ودروسِ أطلاله وآثاره، وشحوبِ سحنته ونضوبِ ماء وَجنته، وأفولِ نجمه كالمغرّبين. وهو عالم لطيف دقّتْ أسراره، وكثرت أنواره، يحارُ فيها فهمُ المتفكرين.

وإن قلت لِمَ قال الله تعالى في هذا المقام: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وما قال: عادلُ يوم الدين؟ فاعلم أن السر في ذلك أن العدل لا يتحقق إلا بعد تحقُّق الحقوق، وليس لأحد من حق على الله رب العالمين. ونجاة الآخرة موهبة من الله تعالى للذين آمنوا به وسارعوا إلى امتثاله وتقبُّل أحكامه وعبادته ومعرفته بسرعة معجبة، كأنهم كانوا في نَجاء حركاتهم ومَسائحِ غَدَواتِهم ورَوحاتهم ممتطين على هوجاءَ شِمِلَّةٍ، ونُوقٍ مُشْمَعِلَّةٍ، وإن لم يُتِمّوا أمر الإطاعة، وما عبدوا حق العبادة، وما عرفوا حق المعرفة، ولكن كانوا عليها حريصين. وكذلك الذين عصوا ربهم، وإن لم تبلغ شقوتهم مداها، ولكن كانوا إليها مسارعين، وكانوا يعملون السيئات ويزيدون في جراءاتهم وما كانوا من المنتهين. فكلٌّ يرى ما كان في نيّته رحمةً من الله أو قهرًا، فمَن ناوَحَ مَهَبَّ نسيمِ الرحمة فسيجد حظًّا منها خالدًا فيها، ومَن قابَلَ صراصرَ القهر فسيقع في صدماتها. وما هذا إلا المالكية لا العدل الذي يقتضي الحقوق، فتدبَّرْ ولا تكن من الغافلين.

واعلم أن في ترتيب هذه الصفات بلاغة أخرى نريد أن نذكرها لتكتحل مِن كُحل المتبصرين. وهو أن الآيات التي رصّع اللهُ بعدَها كلها مقسومة على تلك الصفات برعاية المحاذاة، ووضعِ بعضها تحت بعض كطبقات السماوات والأرضين. وتفصيله أنه تعالى ذكر أوّلاً ذاتَه وصفاتِه بترتيب يوجَد في العالمين. ثم ذكَر كل ما هو يناسب البشريةَ بترتيب يُشاهَد في قانون الله، ومع ذلك جعَل كل صفة بشرية تحت صفة إلهية، وجعل لكل صفة إنسانية مشرَبًا وسُقيًا من صفةٍ إلهية تستفيض منها، وأرى التقابلَ بينهما بترتيب وضعي يوجَد في الآيات، فتبارك الله أحسن المرتِّبين. وتشريحه التام أن الصفات مع اسم الذات خمسةُ أبحرٍ قد تقدّمَ ذكرُها في صدر السورة.. أعني: (١) الله، (٢) ورب العالمين، (٣) والرحمن، (٤) والرحيم، (٥) ومالك يوم الدين. فجعل الله كمثلها خمسة من المغترفات مما ذكر من بعد، وقابلَ الخمسةَ بالخمسةِ، وكل واحد من المغترفات يشرب مِن ماءِ صفةٍ تُشابهه وتُناوحه، وتأخذ مما احتوت على معان تسرُّ العارفين.

مثلاً.. **أوّلُها بحرُ** اسم الله تعالى، وتغترف منه جملةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التي حذَتْه وصارت كالمحاذين. وحقيقة التعبد تعظيمُ المعبود بالتذلل التام والاحتذاء بمثاله والانصباغ بصبغه والخروج من النفس والأنانية كالفانين. وسِرُّه أن العبد قد خُلق كالمريض والعليل والعطشان، وشفاؤه وتسكين غُلّته وإرواء كبده في ماءِ عبادة الله، فلا يبرأ ولا يرتوي إلا إذا يَثنِي إليه انصبابَه، ويُفرط صبابه، ويسعى إليه

كالمستسقين. ولا يُطهِّر قريحتَه ولا يلبِّد عَجاجَته ولا يُحلّي مُجاجَتَه إلا ذِكرُ الله، ألا بذكر الله تطمئن قلوب الذين يعبدون الله ويأتونه مسلمين. ففي آية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إقرارٌ لمعبودية الله الذي هو مستجمِع بجميع صفات الكاملية، ولذلك وقعت هذه الجملة تحت جملة: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾، فانظر إن كنت من الناظرين.

وثانيها بحرُ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وتغترف منها جملةُ: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فإن العبد إذا سمع أن الله يُربّي العالمين كلها، وما مِن عالم إلا هو مربّيه، ورأى نفسَه أمّارةً بالسوء، فتضرّعَ واضطرّ والتجأ إلى بابه، وتعلّقَ بأهدابه، ودخل في مآدبه برعاية آدابه، ليدركه بالربوبية ويُحسن إليه وهو خير المحسنين؛ فإن الربوبية صفةٌ تعطي كلَّ شيء خَلْقَه المطلوبَ لوجوده، ولا يغادره كالناقصين.

وثالثها بحرُ اسم ﴿**الرَّحْمَنِ**﴾ وتغترف منه جملةُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ليكون العبد من المهتدين المرحومين. فإن الرحمانية تُعطي كلَّ ما يحتاج إليه الوجود الذي رُبِّيَ مِن صفة الربوبية، فهذه الصفة تجعل الأسبابَ موافقةً للمرحوم. وأثرُ الربوبية تسويةُ الوجود وتخليقه كما يليق وينبغي، وأثرُ هذه الصفة أنها تُكسِي ذلك الوجودَ لباسًا يواري سوأته، وتَهَبُ له زينتَه، وتكحل عينه وتغسل وجهه، وتعطي له فرسًا للركوب، وتُريه طرق الفارسين. ومَرْتبتها بعد الربوبية، وهي تعطي كلَّ شيء مطلوبَ وجوده، وتجعله من الموفَّقين.

ورابعها بحرُ اسم ﴿**الرَّحِيمِ**﴾ وتغترف منه جملةُ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ليكون العبد من المنعَمين المخصوصين. فإن الرحيمية صفة مُدْنِيةٌ إلى الإنعامات الخاصّة التي لا شريك فيها للمطيعين، وإن كان الإنعام العام محيطة بكل شيء من الناس إلى الأفاعي والتنّين.

وخامسها بحرُ ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ وتغترف منه جملةُ ﴿غَيْرُ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. فإن غضب الله وتركه في الضلالة لا تَظهَر حقيقتُه على الناس على وجه° الكامل إلا في يوم المجازاة، الذي يُجاليهم الله فيه بغضبه وإنعامه، ويُجالحهم بتذليله وإكرامه، ويُجلّي عن نفسه إلى حَدٍّ ما جلّى كمثله، وتراءى السابقون كفرس مُجلّى، وتراءت الجالية بِغَيِّهم المبين. وفيه يعلم الذين كفروا أنهم كانوا موردَ غضب الله وكانوا قوما عمين. ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، ولكن عَمَى هذه الدنيا مخفِيٌّ ويتبيّن في يوم الدين. فالذين أبوا وما تبعوا هَدْي رسولنا ونور كتابنا وكانوا لطواغيتهم متّبعين، فسوف يرون غضب الله وتغيُّظَ النار وزفيرها، ويرون ظلمتهم وضلالتهم بالأعين، ويجدون أنفسهم كالظالع الأعور، ويدخلون جهنم خالدين فيها، وما كان لهم أحد من الشافعين.

وفي الآية إشارة إلى أن اسم ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ذو الجهتين.. يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، فاسألوه أن يجعلكم من المهتدين.

° *سهو، والصحيح: "الوجه" . (الناشر)*

هذا ما أردنا من بيان بعض نِكات هذه الآية ولطائفها الأدبية التي هي للناظرين كالآيات، وبلاغتُها الرائعة المبتكرة المحبّرة المحتوية على محاسن الكنايات، مع دُرر حِكَمية ومعارف نادرة من دقائق الإلهيات، فلا تجد نظيرها في الأولين والآخرين. فلا شك أن مُلَحَ أدبها بارعة، وقَدَمَها على أعلام العلوم فارعة، وهي يصبي◈ قلوب العارفين.

وقد علمتَ ترتيب خمسة أبحر التي تجري بعضها تلو بعض، فتَسَلَّمْه وكن من الشاكرين. وأما ترتيب المغترفات فتعرفه بترتيب أبحرها إن كنت من المغترفين.

﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قدّم الله ﷻ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على قوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارةً إلى تفضلاته الرحمانية مِن قَبْل الاستعانة، فكأن العبد يشكر ربه ويقول يا رب إني أشكرك على نعمائك التي أعطيتني من قبل دعائي ومسألتي وعملي وجهدي واستعانتي بالربوبية والرحمانية التي سبقت سُؤْلَ السائلين، ثم أطلبُ منك قوةً وصلاحًا وفلاحًا وفوزًا ومقاصد التي لا تُعطَى إلا بعد الطلب والاستعانة والدعاء وأنت خير المعطين.

وفي هذه الآيات حثٌّ على شكرِ ما تُعطى، والدعاءِ بالصبر فيما تتمنى، وفرطِ اللهج إلى ما هو أتمّ وأعلى، لتكون من الشاكرين

◈ سهو، والصحيح: "تصبي". (الناشر)

الصابرين. وفيها حثٌّ على نفي الحَول والقوة، والاستطراح بين يدي سبحانه مترقبًا منتظرًا مديمًا للسؤال والدعاء والتضرع والثناء، والافتقار مع الخوفِ والرجاء، كالطفل الرضيع في يد الظئر، والموتِ عن الخلق وعن كل ما هو في الأرضين. وفيها حثٌّ على إقرارٍ واعتراف بأننا الضعفاء، لا نعبدك إلا بك، ولا نتحسس منك إلا بعونك، بك نعمل وبك نتحرك، وإليك نسعى كالثواكل متحرقين وكالعشاق متلظّين. وفيها حثٌّ على الخروج من الاختيال والزَّهْو، والاعتصام بقوة الله تعالى وحوله عند اعتياص الأمور وهجوم المشكلات، والدخول في المنكسرين. كأنه - تعالى شأنه - يقول يا عباد احسَبوا أنفسكم كالميتين، وبالله اعتضِدوا كل حين. فلا يَزْدَهِ الشابُّ منكم بقوته، ولا يتخصّر الشيخ بهراوته، ولا يفرح الكَيّسُ بدهائه، ولا يثق الفقيه بصحة علمه وجودة فهمه وذكائه، ولا يتّكئ الملهَم على إلهامه وكشفه وخلوص دعائه، فإن الله يفعل ما يشاء، ويطرد من يشاء، ويُدخل من يشاء في المخصوصين.

وفي جملة ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى عظمة شرّ النفس الأمّارة التي تسعى كالعَسَّارة، فكأنها أفعى شرُّها قد طَمَّ، فجعَل كلَّ سليم كعظم إذا رَمَّ، وتراها تنفث السمَّ، أو هي ضرغامٌ ما ينكُل إن هَمَّ، ولا حولَ ولا قوة ولا كسب ولا لَمَّ، إلا بالله الذي هو يرجم الشياطين.

وفي تقديم ﴿نَعْبُدُ﴾ على ﴿نَسْتَعِينُ﴾ نِكاتٌ أخرى، فنكتب للذين هم مشغوفون بآيات المثاني لا برنّات المثاني، ويسعون إليها شائقين.

وهي أن الله ﷻ يعلّم عباده دعاءً فيه سعادتهم، فيقول يا عبادِ سَلُوني بالانكسار والعبودية، وقولوا: ربنا إياك نعبد ولكن بالمعاناة والتكلف والتجشم وتَفْرقة الخاطر وتمويهات الخنّاس وبالرويّة الناضبة والأوهام الناصبة والخيالات المظلمة، كماءٍ مُكدّرٍ مِن سَيْل أو كحاطب ليل، وإن نتّبعُ إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين. ﴿وإياك نستعين﴾ يعني: نستعينك للذوق والشوق والحضور والإيمان الموفور، والتلبية الروحانية والسرور والنور، ولتوشيح القلب بحُلي المعارف وحُلل الحبور، لنكون بفضلك من سبّاقين في عرصات اليقين، وإلى منتهى المآرب واصلين، وفي بحار الحقائق متوردين.

وفي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تنبيه آخر، وهو أنه يرغّب فيه عبادَه إلى أن يبذلوا في مطاوعته جُهْدَ المستطيع، ويقوموا مُلبّين في كل حين تلبيةَ المطيع. فكأن العباد يقولون: ربنا إنّا لا نألو في المجاهدات، وفي امتثالك وابتغاء المرضاة، ولكن نستعينك ونستكفي بك الافتتانَ بالعُجب والرياء، ونستوهب منك توفيقًا قائدًا إلى الرشد والرضاء، وإنّا ثابتون على طاعتك وعبادتك، فاكتُبْنا في المطاوعين.

وهنا إشارة أخرى وهي أن العبد يقول يا ربّ إنّا خصصناك بمعبوديّتك، وآثرْناك على كل ما سواك، فلا نعبد شيئا إلا وجهك، وإنّا من الموحِّدين.

واختار ﷻ لفظَ المتكلّم مع الغير إشارةً إلى أن الدعاء لجميع الإخوان لا لنفس الداعي، وحثَّ فيه على مسالمة المسلمين واتحادهم

ووِدادهم، وعلى أن يعنو الداعي نفسه لنصح أخيه كما يعنو لنصح ذاته، ويهتم ويقلق لحاجاته كما يهتم ويقلق لنفسه، ولا يفرّق بينه وبين أخيه، ويكون له بكل القلب من الناصحين. فكأنه تعالى يوصي ويقول يا عِبادِ تَهادوا بالدعاء تَهادِي الإخوان والمحبّين. وتَناثَوا دعواتكم وتَباثَثوا نيّاتكم، وكونوا في المحبة كالإخوان والآباء والبنين.

﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾

هذا الدعاء ردٌّ على قول الذين يقولون إن القلم قد جفَّ بما هو كائن، فلا فائدة في الدعاء، فاللهُ تبارك وتعالى يُبشّر عباده بقبول الدعاء، فكأنه يقول يا عباد ادعوني أستجبْ لكم. وإن في الدعاء تأثيرات وتبديلات، والدعاء المقبول يُدخل الداعي في المنعَمين.

وفي الآية إشارة إلى علامات تُعرَف بها قبولية الدعاء على طريق الاصطفاء، وإيماءٌ إلى آثار المقبَّلين. لأن الإنسان إذا أحبّ الرحمنَ وقوّى الإيمانَ، فذلك الإنسان وإن كان على حُسن اعتقاد في أمر استجابة دعواته، ولكن الاعتقاد ليس كعين اليقين، وليس الخبر كالمعاينة، ولا يستوي حال أولي الأبصار والعمين، بل من يُدرَّب باستجابة الدعاء حق التدرّب، وكان معه أثر من المشاهدات، فلا يبقى له شكٌّ ولا ريبٌ في قبولية الأدعية. والذين يشكّون فيها فسببُه

حرمانُهم من ذلك الحظّ، ثم قلّةُ التفاتهم إلى ربهم، وابتلاؤهم بسلسلة أسبابٍ توجد في واقعات الفطرة وظهورات القدرة، فما ترقّتْ أعينُهم فوق الأسباب المادية الموجودة أمام الأعين، فاستبعَدوا ما لم تُحِط بها آراؤهم وما كانوا مهتدين.

وفي هذه السورة نِكاتٌ شتّى نريد أن نكتب بعضها، ومنها أن الفاتحة سبع آياتٍ أوّلها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمينَ﴾، وآخرها: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾. وفي الآية الأولى بيانُ بدءِ الخَلق، وفي الأخرى إشارة إلى قوم تقوم القيامة عليهم وعلى أمثالهم من اليهود والمتنصرين. وفي تعيين "سبع" آية إشارةٌ إلى أن عمر الدنيا سبعة كما أن أيام أسبوعنا سبعة. وما ندري حقيقة السبعة على وجه التحقيق، أهي آلاف كآلافنا أو غير ذلك، ولكنا نعلم أنه ما بقي من السبعة إلا واحدًا، وقد أراد الله تصرفات جديدة بعد انقضائها، فيُهلك القرون الأولى عند اختتامها ويخلُق الآخرين.

وفي الآية السادسة.. يعني ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ نكتةٌ أخرى، وهي أن آدم قد خُلق في يوم السادس، وأُنعمَ عليه ونُفخ فيه روحُ الحياة في الجمعة بعد العصر، وكذلك يُخلَق رجلٌ في الألف السادس وهو آدم قومٍ أضاعوا إيمانهم، فيجيء ويُحيي قلوبهم، ويهَب لهم عرفانا غضًّا طريًّا، ويجعلهم بعد نومهم من المستيقظين.

وفي آية: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إشارةٌ وحثٌّ على دعاء صحة المعرفة، كأنه يُعلّمنا ويقول ادعوا الله أن يُريكم صفاتِه كما هي

ويجعلكم من الشاكرين، لأن الأمم الأولى ما ضلوا إلا بعد كونهم عُميًا في معرفة صفات الله تعالى وإنعاماته ومرضاته، فكانوا يُفانُون الأيامَ فيما يزيد الآثام، فحلّ غضبُ الله عليهم، فضُربت عليهم الذلة وكانوا من الهالكين. وإليه أشار الله تعالى في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وسياق كلامه يُعلِم أن غضب الله لا يتوجه إلا إلى قوم أنعم الله عليهم من قبل الغضب، فالمراد من ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ في الآية قوم عصوا في نعماء وآلاءٍ رزقهم الله خاصة واتبعوا الشهوات، ونسوا المنعِم وحقه وكانوا من الكافرين. وأما الضالون فهم قوم أرادوا أن يسلكوا مسلك الصواب، ولكن لم يكن معهم من العلوم الصادقة والمعارف المنيرة الحقة، والأدعية العاصمة الموفقة، بل غلبت عليهم خيالات وهمية فركنوا إليها وجهلوا طريقهم، وأخطأوا مشربهم من الحق فضلّوا، وما سرّحوا أفكارهم في مراعي الحق المبين. والعجب من أفكارهم وعقولهم وأنظارهم أنهم جوَّزوا على الله وعلى خلقه ما يأبى منه الفطرة الصحيحة والإشراقات القلبية، ولم يعلموا أن الشرائع تخدم الطبائع، والطبيب معينٌ للطبيعة لا منازعٌ لها، فيا حسرةً عليهم.. ما ألهاهم عن صراط الصادقين!

وفي هذه السورة يُعلّم الله تعالى عباده المسلمين.. فكأنه يقول يا عباد.. إنكم رأيتم اليهود والنصارى، فاجتنِبوا شَبَهَ أعمالِهم، واعتصِموا بحبل الدعاء والاستعانة، ولا تنسوا نعماء الله كاليهود، فيحلّ عليكم

غضبه، ولا تتركوا العلوم الصادقة والدعاء، ولا تهِنوا مِن طلب الهداية كالنصارى فتكونوا من الضالين.

وحثَّ على طلب الهداية إشارةً إلى أن الثبات على الهداية لا يكون إلا بدوام الدعاء والتضرع في حضرة الله. ومع ذلك إشارة إلى أن الهداية أمرٌ مِن لديه، والعبدُ لا يهتدي أبدًا من غير أن يهديه الله ويُدخله في المهديّين. وإشارةٌ إلى أن الهداية غير متناهية، وترقى النفوس إليها بسلّم الدعوات، ومَن ترك الدعاء فأضاع سُلّمه، فإنما الحريّ بالاهتداء مَن كان رَطْبَ اللسان بالدعاء وذكر ربه، وكان عليه من المداومين. ومن ترك الدعاء وادّعى الاهتداء، فعسى أن يتزين للناس بما ليس فيه، ويقع في هوّة الشرك والرياء، ويخرج من جماعة المخلصين. والمخلِص يترقّى يوما فيوما حتى يصير مُخلَصًا.. بفتح اللام.. وتهَب له العناية سِرًّا يكون بين الله وبينه ويدخل في المحبوبين، ويتنزل منزلةَ المقبولين. والعبد لا يبلغ حقيقة الإيمان مِن غير أن يفهم حقيقة الإخلاص ويقوم عليها، ولا يكون مخلصا وعنده على وجه الأرض شيءٌ يتّكئ عليه ويخافه أو يحسبه من الناصرين. ولا ينجو أحد من غوائل النفس وشرورها إلا بعد أن يتقبله الله بإخلاصه، ويعصمه بفضله وحوله وقوته، ويذيقه من شراب الروحانيين، لأنها خبيثة وقد انتهت إلى غاية الخبث وصارت منشأ الأهوية المضلِّة الرديّة المردِية، فعَلَّم الله تعالى عباده أن يفروا إليه بالدعاء عائذا من شرورها ودواهيها ليُدخلهم في زُمر المحفوظين. وإن مثل جذبات النفس كمثل الحُمّيات

الحادّة، فكما تجد عند تلك الحُمّيات أعراضا هائلة مشتدة مِثل النافض والبرد والقشعريرة، ومِثل العرق الكثير والرعاف المفرط والقيء العنيف والإسهال المضعِف، والعطش الذي لا يُطاق، ومِثل السبات الكثير والأرَق اللازم، وخشونة اللسان وقحل الفم، ومِثل العُطاس الملِحّ والصداع الصعب، والسعال المتواتر وسقوط الشهوة والفُواق، وغيرِها من علامات المحمومين؛ كذلك للنفس جذبات وعلامات، موادها تفور، وأمواجها تمور، وأعراضها تدور، وبقراتها تخور، وأسيرها يبور، وقلَّ مَن كان من الناجين. فطلبُ الهداية كمثل الرجوع إلى الطبيب الحاذق والاستطراح بين يدي المعالجين. والإنعام الذي أشار الله إليه لعباده هو تبتُّلُ العبد إلى الله وإحماء وداده ودوام إسعاده، ورجوعُ الله إليه ببركاته وإلهاماته واستجاباته، وجَعْله طودًا من أطواده، وإدخاله في عباده المحفوظين، وقوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيم✪﴾، وجَعْله من الطيبين الطاهرين، فهذا هو الشفاءُ مِن حُمّى المعاصي، والعلاجُ بأوفَق الأدوية والأغذية، والتدبيرُ اللطيف الذي لا يعلمه إلا رب العالمين.

ثم اعلم أن الله في هذه السورة المباركة يُبين للمؤمنين ما كان آخر شأن أهل الكتاب ويقول إن اليهود عصوا ربهم بعد ما نزلت عليهم الإنعامات وتواترت التفضلات، فصاروا قوما مغضوبا عليه، والنصارى

✪ *الأنبياء: ٧٠*

نسوا صفاتِ ربهم وأنزلوه منزلَ العبد الضعيف العاجز، فصاروا قوما ضالين.

وفي السورة إشارة إلى أن أمر المسلمين سيؤول إلى أمر أهل الكتاب في آخر الزمان، فيشابهونهم في أفعالهم وأعمالهم، فيدركهم الله تعالى بفضلٍ من لدنه، وإنعامٍ من عنده، ويحفظهم من الانحرافات السبُعيّة والبهيمية والوهمية، ويُدخلهم في عباده الصالحين.

وفي السورة إشارة إلى بركات الدعاء، وإلى أنه كل خير ينزل من السماء، وإلى أنه مَن عرَف الحق وثبّت نفسه على الهدى، وتهذّب وصلح فلا يُضيعه الله ويُدخله في عباده المنعَمين. والذى عصى ربه فيكون من الهالكين.

وفي السورة إشارة إلى أن السعيد هو الذي كان فيه جيشُ الدعاء، لا يعبَأ ولا يلغَب، ولا يعبِس ولا ييأس، ويثِق بفضل ربه إلى أن تدركه عناية الله فيكون من الفائزين.

وفي السورة إشارة إلى أن صفات الله تعالى مؤثّرة بقدر إيمان العبد بها، وإذا توجّهَ العارف إلى صفة من صفات الله تعالى وأبصره ببصر روحه، وآمن ثم آمن ثم آمن حتى فنى في إيمانه، فتدخُل روحانية هذه الصفة في قلبه، وتأخذه منه، فيرى السالك بالَه فارغًا من غير الرحمن، وقلبَه مطمئنًّا بالإيمان، وعيشَه حلوًا بذكر المنّان، ويكون من المستبشرين. فتتجلى تلك الصفة له وتستوي عليه حتى يكون قلبُ

هذا العبد عرشَ هذه الصفة، وينصبغ القلب بصبغها بعد ذهاب الصبغ النفسانية، وبعد كونه من الفانين.

فإن قلتَ مِن أين علمتَ أن هذه الإشارة توجد في الفاتحة؟ فاعلَمْ أن لفظ ﴿الْحَمْدُ لِلهِ﴾ يدل عليه، فإن الله تعالى ما قال: "قُل الحمدُ لله"، بل قال: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ﴾، فكأنه أنطقَ فطرتَنا وأرانا ما كان مخفيًّا في فطرتنا. وهذه إشارة إلى أن الإنسان قد خُلق على فطرة الإسلام، وأُدخِل في فطرته أن يحمد الله ويستيقن أنه رب العالمين، ورحمن، ورحيم، ومالك يوم الدين. وأنه يُعين المستعين ويَهدي الداعين. فثبت من ههنا أن العبد مجبولٌ على معرفة ربه وعبادته، وقد أُشرِب في قلبه محبّته، فتظهر هذه الحالة بعد رفع الحجب، وتُجري ذِكر الله تعالى على اللسان من غير اختيار وتكلّف، وتنبت شجرة المعارف وتثمر وتؤتي أكله° كل حين.

وفي قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة أخرى، وهو أن الله تعالى خلَق الآخرين مشاكِلين بالأولين. فإذا اتصلت أرواحهم بأرواحهم بكمالِ الاقتداء ومناسبةِ الطبائع، فينزل الفيض من قلوبهم إلى قلوبهم، ثم إذا تمّ إفضاء المستفيض إلى المفيض وبلغ الأمر إلى غاية الوصلة، فيصير وجودهما كشيء واحد، ويغيب أحدهما في الآخر، وهذه الحالة هي المعبَّرُ عنها بالاتحاد، وفي هذه المرتبة يُسمى

° سهو، والصحيح: *"أُكُلها"* . *(الناشر)*

السالك في السماء تسميةَ الأنبياء لمشابَهته إياهم في جوهرهم وطبعهم كما لا يخفى على العارفين.

وحاصل الكلام أن الله تعالى يُبشّر لأمة نبيّنا ﷺ، فكأنه يقول يا عبادِ إنكم خُلقتم على طبائع المنعَمين السابقين، وفيكم استعداداتهم، فلا تُضيعوا الاستعدادات، وجاهِدوا لتحصيل الكمالات، واعلموا أن الله جوّادٌ كريم وليس ببخيل ضنين. ومن ههنا يُفهَم سِرُّ نزول المسيح الذي يختصم الناس فيه.. فإن عبدًا من عباد الله إذا اقتدى هدي المهتدين، وتبع سنن الكاملين، وتأهَّبَ للانصباغ بصبغ المهديّين، وعطَف إليهم بجميع إرادته وقوّته وجَنانه، وأدّى شرط السلوك بحسب إمكانه، وشَفَعَ الأقوال بالأعمال والمقالَ بالحال، ودخل في الذين يتعاطون كأس المحبة للقادر ذي الجلال، ويقتدحون زنادَ ذِكر الله بالتضرع والابتهال، ويبكون مع الباكين.. فهنالك يفور بحر رحمة الله ليُطهّره من الأوساخ والأدران، ولترويه* بإفاضة التهتان، ثم يأخذ يدَه ويُرقّيه إلى أعلى مراتب الارتقاء والعرفان، ويُدخله في الذين خلوا من قبله من الصلحاء والأولياء والرسل والنبيين، فيُعطي كمالا كمثل كمالهم، وجمالاً كمثل جمالهم، وجلالاً كمثل جلالهم، وقد يقتضي الزمان والمصلحة أن يُرسل هذا الرجلَ على قدم نبي خاص، فيُعطي له عِلْمًا كعلمه، وعقلا كعقله، ونورًا كنوره، واسمًا كاسمه، ويجعل الله أرواحهما كمرايا متقابلة، فيكون النبي كالأصل، والولي كالظل، مِن

* سهو، والصحيح: *"ليرويه"* . *(الناشر)*

مرتبته يأخذ ومِن روحانيته يستفيد، حتى يرتفع منهما الامتيازُ والغَيرية، وتَرِدُ أحكامُ الأول على الآخر، ويصيران كشيء واحدٍ عند الله وعند مَلَئِه الأعلى، وينزل على الآخر إرادةُ الله وتصريفه إلى جهة، وأمرُه ونهيه بعد عبوره على روح الأول، وهذا سرٌّ من أسرار الله تعالى لا يفهمه إلا من كان من الروحانيين.

واعلم أن ذلك الرجل الذي يتشابه قلبه بقلب نبي بمشابهة قوية شديدة تامة كاملة لا يأتي إلا إذا اشتدت الضرورة لمجيئه، فلما قامت الضرورة لوجود مثل ذلك الرجل.. يستأثر الله عبدا من عباده لهذا الأمر، فيدانيه رحمته كما كانت دانت مُورِثه، وينزل عليه سرّ روحه وحقيقة جوهره، وصفاء سيرته وشأن شمائله، ويجعل إرادته في إراداته، وتوجهاته في توجهاته، حتى يتجلى فيه جميع شؤون النبي المشبه به ويصير مغمورا في معنى الاتحاد، فيصيران حقيقة واحدة يقع عليهما اسم واحد، ويُنسَبون إلى مثال واحد، كأن النبي المشبه به نزل من السماء إلى أهل الأرضين. فهذا معنى قولِ النبي ﷺ في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وهو الحق لا يُخالف القرآن ولا يُعارضه، وقد مضى مثله في الأولين. فلا تجادِلْ بغير الحق ولا تكن من المنكرين. قد تُوُفِّيَ عيسى كما تُوُفِّيَ الذين خلوا من قبله وجاءوا من بعده. فلا تَخَفْ قوما تركوا كتاب الله ونصوصه، وآثروا غير القرآن على القرآن، وآثروا الشك على اليقين، وخَفِ اللهَ وقَهْرَه واعتزِلْ تلك الفرقَ كلها واعتصِمْ بحبل

الله المتين. ومن صرَف عِنان التوجه إلى هذه الآية وأمعنَ فيه• حق الإمعان، فيرى أنها شاهد على بياننا هذا ويكون من المذعنين.

فلا تعذلوني بعد ما قلتُ سِرَّه وأثبَتُّه بدلائل الفرقانِ
وقد بانَ برهاني بقولٍ واضحٍ وأنار صدقي عند ذي العرفانِ
وعليك بالصدق النقيّ وسُبلِه ولو أنه ألقاك في النيرانِ

ثم اعلم أن لله تعالى صفات ذاتية ناشئة من اقتضاء ذاته، وعليها مدار العالمين كلها، وهي أربعة: (١) ربوبية (٢) ورحمانية (٣) ورحيمية (٤) ومالكية، كما أشار الله تعالى إليها في هذه السورة وقال: (١) رَبِّ العالمينَ (٢) الرَّحْمَنِ (٣) الرَّحِيمِ (٤) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. فهذه الصفات الذاتية سابقة على كل شيء ومحيطة بكل شيء، ومنها وجودُ الأشياء واستعدادها، وقابليتها ووصولها إلى كمالاتها. وأما صفة الغضب فليست ذاتية لله تعالى، بل هي ناشئة من عدم قابلية بعض الأعيان للكمال المطلق، وكذلك صفة الإضلال لا يبدو إلا بعد زيغ الضالين.

وأما حصر الصفات المذكورة في الأربع فنظرًا على العالم الذي يوجد فيه آثارها. ألا ترى أن العالم كله يشهد على وجود هذه الصفات بلسان الحال، وقد تجلت هذه الصفات بنحوٍ لا يشك فيها

• *سهو، والصحيح: "فيها". (الناشر)*

بصيرٌ إلا من كان من قوم عمين. وهذه الصفات أربعٌ إلى انقراض النشأة الدنيوية، ثم تتجلى من تحتها أربع أخرى التي من شأنها أنها لا تظهر إلا في العالم الآخر، وأوّلُ مَطالِعِها عرشُ الرب الكريم الذي لم يتدنس بوجودِ غير الله تعالى وصار مظهرًا تامًّا لأنوار رب العالمين، وقوائمه أربعٌ: ربوبية ورحمانية ورحيمية ومالكية يوم الدين. ولا جامِعَ لهذه الأربع على وجه الظلّيّة إلا عرشُ الله تعالى وقلبُ الإنسان الكامل، وهذه الصفات أمهات لصفات الله كلها، ووقعت كقوائم العرش الذي استوى الله عليه، وفي لفظ الاستواء إشارة إلى هذا الانعكاس على الوجه الأتم الأكمل من الله الذي هو أحسن الخالقين. وتنتهي كل قائمة من العرش إلى مَلَكٍ هو حاملُها، ومدبّرُ أمرها، ومورِدُ تجلياتها، وقاسِمُها على أهل السماء والأرضين. فهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ *، فإن الملائكة يحملون صفاتٍ فيها حقيقة عرشية. والسر في ذلك أن العرش ليس شيئا من أشياء الدنيا، بل هو برزخ بين الدنيا والآخرة، ومبدأٌ قديم للتجليات الربانية والرحمانية والرحيمية والمالكية لإظهار التفضلات وتكميل الجزاءِ والدين. وهو داخلٌ في صفات الله تعالى، فإنه كان ذا العرش من قديم، ولم يكن معه شيء، فكُنْ من المتدبرين.

وحقيقة العرش واستواء الله عليه سِرٌّ عظيم من أسرار الله تعالى وحكمةٌ بالغة ومعنى روحاني، وسُمِّيَ عرشًا لتفهيم عقول هذا العالم

---

* *الحاقة: ١٨*

ولتقريب الأمر إلى استعداداتهم، وهو واسطة في وصول الفيض الإلهي والتجلي الرحماني من حضرة الحق إلى الملائكة، ومن الملائكة إلى الرسل. ولا يقدَح في وحدته تعالى تكثُّرُ قوابلِ الفيض، بل التكثر ههنا يوجب البركات لبني آدم، ويعِينهم على القوة الروحانية، وينصرهم في المجاهدات والرياضات الموجبة لظهور المناسبات التي بينهم وبين ما يصلون إليه من النفوس كنفس العرش والعقول المجردة إلى أن يصلون° إلى المبدأ الأول وعلّة العلل. ثم إذا أعان السالكَ الجذباتُ الإلهية والنسيمُ الرحمانية، فيقطع كثيرا من حجبه، وينجيه من بُعد المقصد وكثرة عقباته وآفاته، وينوِّره بالنور الإلهي ويُدخله في الواصلين. فيكمل له الوصول والشهود مع رؤيته عجائباتِ المنازل والمقامات. ولا شعورَ لأهل العقل بهذه المعارف والنكات، ولا مَدخَل للعقل فيه، والاطلاعُ بأمثال هذه المعاني إنما هو من مشكاة النبوة والولاية، وما شمّت◈ العقل رائحته، وما كان لعاقل أن يضع القدم في هذا الموضع إلا بجذبة من جذبات رب العالمين.

وإذا انفكّت الأرواح الطيبة الكاملة من الأبدان، ويتطهرون على وجه الكمال من الأوساخ والأدران، يُعرَضون على الله تحت العرش بواسطة الملائكة، فيأخذون بطور جديد حظًّا من ربوبيته يغاير ربوبيةً سابقة، وحظًّا من رحمانية مغايرَ رحمانيةٍ أولى، وحظًّا من رحيمية

° سهو، والصحيح: "يصلوا". (الناشر)

◈ سهو، والصحيح: "شمّ". (الناشر)

ومالكية مغايرَ ما كان في الدنيا. فهنالك تكون ثماني صفات تحملها ثمانية من ملائكة الله بإذن أحسن الخالقين. فإن لكل صفة مَلَك مُوَكَّلٌ قد خُلق لتوزيع تلك الصفة على وجه التدبير ووضعها في محلها، وإليه إشارة في قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا*﴾، فتدبَّرْ ولا تكُنْ من الغافلين.

وزيادة الملائكة الحاملين في الآخرة لزيادة تجلياتٍ ربانية ورحمانية ورحيمية ومالكية عند زيادة القوابل، فإن النفوس المطمئنة بعد انقطاعها ورجوعها إلى العالم الثاني والرب الكريم تترقى في استعداداتها، فتتموج الربوبية والرحمانية والرحيمية والمالكية بحسب قابلياتهم واستعداداتهم كما تشهد عليه كشوف العارفين. وإن كنت من الذين أُعطيَ لهم حظٌّ من القرآن، فتجد فيه كثيرا من مثل هذا البيان، فانظرْ بالنظر الدقيق لتجد شهادة هذا التحقيق، من كتاب الله رب العالمين.

ثم اعلم أن في آية: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة عظيمة إلى تزكية النفوس من دقائق الشرك واستئصال أسبابها، ولأجل ذلك رغّب الله في الآية في تحصيل كمالات الأنبياء واستفتاح أبوابها، فإن أكثر الشرك قد جاء في الدنيا من باب إطراء الأنبياء والأولياء، وإن الذين حسبوا نبيهم وحيدا فريدا، ووحده لا شريك له كذات حضرة الكبرياء، فكان مآل أمرهم أنهم اتخذوه إلهًا بعد مدة، وهكذا فسدت قلوب النصارى من الإطراء والاعتداء. فالله

* *النازعات:٦*

يشير في هذه الآية إلى هذه المفسدة والغواية، ويومئ إلى أن المنعَمين من المرسَلين والنبيين والمحدَّثين إنما يُبعَثون ليصطبغ الناس بصبغ تلك الكرام، لا أن يعبدوهم ويتخذوهم آلهة كالأصنام، فالغرض من إرسال تلك النفوس المهذَّبة ذوي الصفات المطهرة، أن يكون كلُّ متّبع قريعَ تلك الصِفاتِ، لا قارِعَ الجبهةِ على هذه الصَّفاة. فأومأ الله في هذه الآية لأولي الفهم والدراية إلى أن كمالات النبيين ليست ككمالات رب العالمين، وأن الله أحدٌ صمدٌ وحيدٌ لا شريك له في ذاته ولا في صفاته، وأما الأنبياء فليسوا كذلك، بل جعل الله لهم وارثين من المتّبعين الصادقين، فأُمّتُهم وُرثاؤهم.. يجدون ما وجد أنبياؤهم إن كانوا لهم متبعين. وإلى هذا أشار في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ*﴾، فانظرْ كيف جعَل الأُمّةَ أحبّاءَ الله بشرط اتّباعهم واقتدائهم بسيد المحبوبين.

وتدل آية ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أن تُراث السابقين من المرسَلين والصدّيقين حقٌّ واجبٌ غيرُ مجذوذ ومفروضٌ للاحقين من المؤمنين الصالحين إلى يوم الدين. وهم يرثون الأنبياء ويجدون ما وجدوا من إنعامات الله. وهذا هو الحق فلا تكن من الممترين.

وأما سِرُّ ذلك التوارث ولِمّيّة المورِث والوارث، فتنكشف من تلك الآية التي تُعلّم التوحيد، وتُعظّم الرب الوحيد، فإن الله المعين وأرحم

---

* *آل عمران: ٣٢*

الراحمين، إذا علّم دقائق التوحيد وبالَغ في التلقين، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فأراد عند هذا التعليم والتفهيم أن يقطع عروقَ الشرك كلها فضلاً من لدنه ورحمةً منه على أُمّة خاتم النبيين، لينجّي هذه الأُمّةَ من آفات وَرَدَت على المتقدمين. فعلَّمنا دعاءً مَبَرَّةً وعطاءً وجعَلَنا منه من المستخلصين. فنحن ندعو بتعليمه، ونطلب منه بتفهيمه، فرحين برِفْده، مفصِحين بحمده، قائلين: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين﴾. ونحن نسأل الله لنا في هذا الدعاء كلَّ ما أُعطيَ للأنبياء من النعماء، ونسأله أن نثبت كالأنبياء على الصراط، ونتجافى عن الاشتطاط، وندخل معهم في مربَع حظيرة القدس، متطهرين من كل أنواع الرجس، ومبادرين إلى ذَرَى ربِّ العالمين. فلا يخفى أن الله جعلنا في هذا الدعاء كأظلال الأنبياء، وأورثَنا وأعطانا المعلوم والمكتوم، والمعكوم والمختوم، ومِن كل الآلاء والنعماء، فاحتملْنا منها وِقْرَنا، ورجعْنا بما يسدّ فقرنا، وسالت أوديةٌ بقدرها، فأُحْلِلْنا محلَّ الفائزين. وهذا هو سِرّ إرسال الأنبياء وبعثِ المرسلين والأصفياء، لنُصبَّغ بصبغ الكرام، وننتظم في سلك الالتئام، ونرث الأولين من المقرَّبين المنعَمين.

ومع ذلك قد جرت سُنّة الله أنه إذا أعطى عبدًا كمالاً، وطفق الجُهّال يعبدونه ضلالاً، ويُشركونه بالرب الكريم عزةً وجلالاً، بل يحسبونه ربًّا فعّالاً، فيخلق اللهُ مِثْلَه، ويُسمّيه بتسميته، ويضع كمالاته في فطرته، وكذلك يجعل لغيرته ليُبطل ما خطر في قلوب المشركين.

يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل وهم من المسؤولين. يجعل من يشاء كالدَّرّ السائغ للاغتذاء، أو كالدُّرّة البيضاء في اللمعان والصفاء، ويسوق إليه شربًا من التسنيم، ويضمّخه بالطِّيب العميم، حتى يُسفِر عن مَرْأى وسيم، وأَرَج نسيم للناظرين.

فالحاصل أنه تعالى أشار في هذا الدعاء لطُلاب الرشاد إلى رحمته العامّة والوداد، فكأنه قال إنني رحيم.. وسعتْ رحمتي كل شيء.. أجعل بعضَ العباد وارثًا لبعض من التفضل والعطاء، لأسُدّ باب الشرك الذي يَشيع من تخصيص الكمالات ببعض أفراد من الأصفياء. فهذا هو سِرُّ هذا الدعاء، كأنه يُبشّر الناس بفيض عامٍ، وعطاءٍ شاملٍ لأنامٍ، ويقول إني فيّاض وربّ العالمين، ولستُ كبخيل وضنين. فاذكروا بيتَ فيضي وما ثَمَّ، فإن فيضي قد عمَّ وتمَّ، وإن صراطي صراط قد سُوِّيَ ومُدَّ، لكل من نهض وأعتدَ واستعدّ، وطلب كالمجاهدين. وهذه نكتة عظيمة في آية: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهي إزالة الشرك وسدُّ أبوابه، فالسلام على قوم استُخلِصوا من هذا الشرك وعلى مَن لديهم، وعلى كل مَن تبِعهم من الطالبين الصادقين.

وفي الآية إشارة أخرى، وهي أن الصراط المستقيم هو النعمة العظمى، ورأس كل نعمة وبابُ كل ما يُعطى، وينتاب العبد نِعمُ الله مُذْ أُعطِيَ له هذه الدولة الكبرى ومُلكٌ لا يبلى. ومن تأهّبَ لهذه النعمة ووُفِّقَ للثبات عليها، فقد دُعِيَ إلى كل أنواع الهدى، ورأى

العيشَ النضير والنور المنير بعد ليالي الدجى. نجّاه الله من كل الهفوات قبل الفوات، وأدخله في زمر التُقاة بعد مُقاناة العُصاة، وأراه سبل الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وأما حقيقة الصراط المستقيم، التي أُريدتْ في الدين القويم، فهي أن العبد إذا أحبّ ربَّه المنّان، وكان راضيا بمرضاته وفوّض إليه الروح والجَنان، وأسلم وجهه لله الذي خلق الإنسان، وما دعا إلا إياه، وصافاه وناجاه، وسأله الرحمةَ والحنان، وتنبّهَ مِن غشيه، واستقام في مشيه، وخشِي الرحمن، وشغَفه الله حُبًّا وأعانَ، وقوّى اليقين والإيمانَ، فمالَ العبد إلى ربه بكل قلبه، وإرْبه وعقله، وجوارحه وأرضه وحقله، وأعرضَ عما سواه، وما بقِي له إلا ربه وما تبع إلا هواه، وجاءه بقلب فارغ عن غيره، وما قصَد إلا اللهَ في سبل سيره، وتاب من كل إدلال واغترار بمال وذي مال، وحضَر حضرةَ الرب كالمساكين، ووَذَرَ العاجلةَ وألغاها، وأحبَّ الآخرة وابتغاها، وتوكّلَ على الله، وكان لله، وفنى في الله، وسعى إلى الله كالعاشقين.. فهذا هو الصراط المستقيم الذي هو منتهى سير السالكين، ومقصد الطالبين العابدين. وهذا هو النور الذي لا يحلّ الرحمةُ إلا بعد حلوله، ولا يحصل الفلاحُ إلا بعد حصوله، وهذا هو المفتاح الذي يُناجي السالكُ منه بذات الصدور، وتُفتح عليه أبواب الفراسة، ويُجعل مُحدَّثًا من الله الغفور.

ومَن ناجى ربَّه ذاتَ بكرة بهذا الدعاء بالإخلاص وإمحاض النيّة، ورعاية شرائط الاتّقاء والوفاء، فلا شك أنه يحلّ محلّ الأصفياء

والأحبّاء والمقرّبين. ومن تأوّهَ آهةَ الثكلان في حضرة الربّ المنّان، وطلَب استجابةَ هذا الدعاء من الله الرحمن، خاشعا مبتهلا وعيناه تذرفان، فيُستجاب دعاؤه ويُكرم مثواه، ويُعطى له هداه، وتُقوَّى له عقيدتُه بالدلائل المنيرة كالياقوت، ويُقوَّى له قلبُه الذي كان أوهنَ من بيت العنكبوت، ويُوفَّق لتوسعة الذَّرْع ودقائق الورع، فيُدعى إلى قِرى الروحانيين، ومطائب الربانيين. ويكون في كل حال غالبا على هَوًى مغلوبٍ، ويقوده برعاية الشرع حيث يشاء كأشجع راكب على أطوعِ مركوبٍ، ولا يبغي الدنيا ولا يتَعَنَّى لأجلها، ولا يسجد لعِجْلها، ويتولاه الله وهو يتولى الصالحين. وتكون نفسه مطمئنة ولا تبقى كالمبيد المضِلّ، ولا تُحَمْلقُ حملقةَ الباز المطِلّ، ويرى مقاصدَ سلوكه كالكرام، ولا تكون سُحبه كالجَهام، بل يشرب كل حين من ماء مَعين.

وحثَّ الله عباده على أن يسألوه إدامةَ ذلك المقام، والتثبّت عليه والوصول إلى هذا المرام، لأنه مقام رفيع، ومرام منيع، لا يحصل لأحد إلا بفضل ربه، لا بجهد نفسه، فلا بد من أن يضطر العبد لتحصيل هذه النعمة إلى حضرة العزة، ويسأله إنجاحَ هذه المنْية بالقيام والركوع والسجدة والتمرغ على تُرْب المِذلّة، باسطًا ذيل الراحة، ومتعرضًا للاستماحة، كالسائلين المضطرين.

وجملةُ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ إشارةٌ إلى رعاية حسن الآداب، والتأدب مع ربّ الأرباب، فإن للدعاء آدابًا، ولا يعرفها إلا من كان توّابًا، ومن لا يُبالي الآداب، فيغضب الله عليه إذا أصرّ على الغفلة وما

تاب، فلا يرى من دعائه إلا العقوبة والعذاب، فلأجل ذلك قلّ الفائزون في الدعاء، وكثر الهالكون لِحُجب العُجْب والغفلة والرياء. وإن أكثر الناس لا يدعون إلا وهم مشركون، وإلى غير الله متوجهون، بل إلى زيد وبكر ينظرون، فالله لا يقبل دعاء المشركين، ويتركهم في بيدائهم تائهين، وإن حَبْوة الله قريب من المنكسرين. وليس الداعي الذي ينظر إلى أطراف وأنحاء، ويُختلب بكل برق وضياء، ويريد أن يُترِع كُمَّه ولو بوسائل الأصنام، ويعلو كلَّ ربوة راغبا في حَبْوة، ويبغي معشوق المرام ولو بتوسل اللئام، والفاسقين. بل الداعي الصادق هو الذي يتبتل إلى الله تبتيلا، ولا يسأل غيره فتيلا، ويجيء اللهَ كالمنقطعين المستسلمين، ويكون إلى الله سيرُه، ولا يعبأ بمن هو غيرُه، ولو كان من الملوك والسلاطين. والذي يكبّ على غيره، ولا يقصد الحق في سيره، فهو ليس من الداعين الموحّدين، بل كزاملة الشياطين، فلا ينظر الله إلى طلاوة كلماته، وينظر إلى خِبْثةِ نيّاته، وإنما هو عند الله، مع حلاوة لسانه وحسن بيانه، كمثل روثٍ مفضَّض، أو كَنيفٍ مبيَّض، قد آمنتْ شفتاه وقلبُه من الكافرين. فأولئك الذين غضب الله عليهم وهم المرادون من قوله: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. إنهم دُعُوا إلى سُبُل الحق فتركوها بعد رؤيتها، وتَخَيَّروا المفاسد بعد التنبه على خِبْثَتها، وانطلقوا ذات الشمال وما انطلقوا ذات اليمين، وإنهم ركنوا إلى المَيْنِ وما بقي إلا قِيْدَ رُمحَيْنِ، وعدموا الحق بعد ما كانوا عارفين.

وأما الضالون الذين أُشير إليهم في قوله ﷻ: ﴿الضَّالِّينَ﴾ فهم الذين وجدوا طريقا طامسًا في ليل دامس، فزاغوا عن المحجّة قبل ظهور الحجّة، وقاموا على الباطل غافلين. وما كان مصباح يؤمّنهم العثارَ، أو يبيّن لهم الآثار، فسقطوا في هوّة الضلال غير متعمدين. ولو كانوا من الداعين بدعاء: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لحفظهم ربُّهم ولأراهم الدين القويم، ولنجّاهم من سبل الضلالة، ولهداهم إلى طرق الحق والحكمة والعدالة، ليجدوا الصراط غير ملومين. ولكنهم بادروا إلى الأهواء، وما دعَوا ربَّهم للاهتداء، وما كانوا خائفين، بل لوَّوا رؤوسهم مستكبرين. وسرَتْ حُمَيّا العُجْب فيهم، فرفضوا الحق لهفواتٍ خرجت مِن فيهم، ولفظتْهم تعصباتُهم إلى بوادي الهالكين.

فالحاصل أن دعاء: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يُنجي الإنسان من كل أَوَدٍ ويُظهِر عليه الدين القويم، ويُخرجه من بيتٍ قفرٍ إلى رياض الثمر والرياحين. ومن زاد فيه إلحاحا، زاده الله صلاحا. والنبيون آنسوا منه أُنْسَ الرحمن، فما فارقوا الدعاء طُرفةَ عين إلى آخر الزمان. وما كان لأحد أن يكون غنيًا عن هذه الدعوة، ولا معرضا عن هذه المِنْية، نبيًّا أو كان من المرسَلين. فإن مراتب الرشد والهداية، لا تتم أبدًا بل هي إلى غير النهاية، ولا تبلغها أنظارُ الدراية، فلذلك عَلَّمَ الله تعالى هذا الدعاء لعباده، وجعَله مدار الصلاة ليتمتعوا برشاده، وليُكمّل الناس به التوحيدَ، وليذكُروا المواعيد، وليُستَخلصوا من شركِ المشركين.

ومن كمالات هذا الدعاء أنه يعمّ كلَّ مراتب الناس، وكلَّ فرد من أفراد الأناس. وهو دعاء غير محدود لا حدَّ له ولا انتهاءَ، ولا غايَ ولا أرجاءَ، فطوبى للذين يداومون عليه بقلبٍ دامي القُرْح، وبروح صابرة على الجُرْح، ونفسٍ مطمئنة كعباد الله العارفين. وإنه دعاء تضمَّنَ كلَّ خير وسلامة، وسداد واستقامة، وفيه بشارات من الله رب العالمين.

وقيل إن الطريق لا يُسَمَّى صراطًا عند قوم ذوي قلب ونور، حتى يتضمن خمسة أمور من أمور الدين وهي: (١) الاستقامة (٢) والإيصال إلى المقصود باليقين (٣) وقرب الطريق (٤) وسَعَتُه للمارّين (٥) وتعيينه طريقا للمقصود في أعين السالكين. وهو تارة يُضاف إلى الله إذ هو شرَعه وهو سوّى سُبُلَه للماشين. وتارة يُضاف إلى العباد لكونهم أهل السلوك والمارّين عليها والعابرين.

والآن نرى أن نُوازِن هذا الدعاء بالدعاء الذي علّمه المسيحُ في الإنجيل، ليتبين لكل مُنْصف أيُّهما أشفى للعليل، وَأدرأُ للغليل، وأرفعُ شأنا، وأتمُّ برهانا، وأنفع للطالبين. فاعلم أن في إنجيل لوقا قد كُتب في الإصحاح الحادي عشر أن المسيح عَلّم الدعاء هكذا (٢)* "فقال لهم (يعني للحواريين): متى صليتم فقولوا أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمُك، ليأت ملكوتُك، لتكُنْ مشيئتك كما في السماوات كذلك على الأرضين. خُبْزَنا كفافَنا أعطِنا كل يوم واغفِرْ لنا خطايانا،

* *أي الفقرة الثانية من الإصحاح المذكور. (الناشر)*

لأننا نحن أيضا نغفر لكل من يُذنب إلينا (يعني نغفر للمذنبين). ولا تُدخلنا في تجربة لكن نَجِّنا من الشرير." هذا دعاء علّم للمسيحيين.

فاعلم أنه دعاء يفرّط في الصفات الربانية، وكذلك ما يحيط على مقاصد الفطرة الإنسانية، بل يزيد سَوْرة الحسرة الروحانية، ويحرّك القُوى لطلب الأهواء الفانية، والشهوات المتفانية، مع الذهول عن سعادات يوم الدين. ومِن جملة جُمَلِه فقرةٌ.. أعني **"لِيَتقدّسْ اسمك"**، فانظر فيها بعقلك وفهمك.. هل تجده حَرِيًّا بشأن الأكمل الذي ليستْ له حالة منتظَرة من حالات الكمال، ولا مرتبة مترقَّبة من مراتب التقدس والجلال؟ فإن المحامد والتقدسات كلها ثابتة لحضرة العزة، ولا يُنتَظَر شيء منها في الأزمنة الآتية، وهذا هو تعليم القرآن، وتلقين كلام الله الرحمن، كما مرّ كلامنا في هذا البيان. ومن أقبلَ على الفرقان المجيد، وفهِمه وتدبَّرَ ونظَره بالنظر السديد، فينكشف عليه أن الفرقان قد أكمل في هذا الأمرِ البيانَ، وصرّح بأن لله كمالا تامًّا، وكل كمالٍ ثابت له بالفعل وليس فيه كلام، وتجويز الحالة المنتظَرة له جهلٌ وظلم واجترام. وأما الإنجيل فيجعل البارئ عز اسمه محتاجا إلى الحالة المنتظَرة، وضاجرًا لكمالاتٍ مفقودة غير الموجودة، ولا يقبَل وجودَ كمال شجرته، بل يُظهِر الأمانيَ لإيناع ثمرته، وليس قائلَ استنارةِ بدره، بل ينتظر زمانَ عُلُوّ قدره. كأن رَبَّ الإنجيل واجِمٌ من فقد المرادات، وعاجز عن إمضاء الإرادات. وكم من ليلة باتَها ينتظر كمالاتٍ، ويترقب تغيُّرَ حالات، حتى يئس من أيام رشاده، وأقبلَ

على عباده ليتمنوا له حصول مراده، وليعقدوا الهمم لزوال كَمَدِه، وعلاج رَمَدِه. سبحان ربنا إنْ هذا إلا بُهتان مبين. إنما أمرُه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. ما لِلْبَلْبالِ ورَبٍّ ذي الجلال، رب العالمين؟

ثم دعاءِ المسيح دعاءٌ لا أثر فيه من غير التنزيه.. كأنه يقول إن الله منزّه عن الكذب والتمويه، ولكن لا توجد فيه كمالات أخرى، ولا من الصفات الثبوتية أثرٌ أدنى، فإن التنزيه والتقديس من الصفات السلبية كما لا يخفى على ذوى المعرفة والبصيرة، وأما الصفات السلبية فهي لا تقوم مقام الإثبات كما ثبت عند الثقات. وأما ما علّمَنا القرآن من الدعاء، فهو يشتمل على جميع صفات كاملة توجد في حضرة الكبرياء، ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، كيف أحاط صفاتِ الله جُموعَها، وتأبّطَ أصولها وفروعها؟ وأشار في: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ أن الله ذاتٌ لا تُحصى صفاته، ولا تُعَدّ كمالاته، وأشار في: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن وَبْلَ ربوبيته يعمّ السماواتِ والأرضين، والجسمانيين والروحانيين. وأشار في: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أن الرحمة بجميع أنواعها من الله القيّوم القديم، والخلّاق الكريم، وأشار في قوله: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أن مالِكَ المجازاة هو الله لا غيره من المخلوقين، وأن أبحُر المجازاة جارية وهي تمرّ مَرَّ السحاب كل حين، وكل ما يرى عبدٌ من فضل الله وإحساناته بعد أعمالٍ صالحةٍ، وصِدْقِهِ وَصَدَقاتِهِ، فإنما هو صنيعة مجازاته. ففي هذه المحامد

إشارات رفيعة عالية، ودلالات لطيفة متعالية، على كل كمالٍ لحضرة اللهِ جامِعِ كلِّ جمال وجلال. ثم من المعلوم أن اللام في: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ للاستغراق، فهو يشير إلى أن المحامد كلها لله بالاستحقاق.

وأما دعاء الإنجيل.. أعني "**ليتقدسْ اسمك**" فلا يشير إلى كمال، بل يخبر عن خطراتِ زوال، ويُظهِر الأماني لتقديس الرحمن، كأن التقدس ليس له بحاصل إلى هذا الآن. فما هذا الدعاء إلا من نوع الهذيان، فإنك تعلم أن الله قُدّوسٌ من الأزل إلى الأبد، كما هو يليق بالأحد الصمد، فهو منزه ومقدس من كل التدنسات، في جميع الأوقات، إلى أبد الآبدين، وليس محروما ومن المنتظرين.

ثم قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ ردٌّ لطيف على الدهريين والملحِدين والطبيعيين الذين لا يؤمنون بصفات الله المجيد، ويقولون إنه كعِلّةٍ موجِبة وليس بالمدبّر المريد، ولا يوجد فيه إرادة كالمنعِمين والمعطين. فكأنه يقول كيف لا تؤمنون بربّ البريّة وتكفرون بربوبيته الإرادية، وهو الذي يُربّي العالمين، ويغمر بنواله، ويحفظ السماوات والأرض بقدرته وجلاله، ويعرف من أطاعه ومن عصا، فيغفر المعاصي أو يؤدّب بالعصا، ومن جاءه مطيعًا فله جنّتانِ، وحفّتْ به فرحتان، فرحة تصيبه من اسم الرحيم، وأخرى من الرحمن القديم، فيُجزَى جزاءً أوفى من الله الأعلى، ويُدخَل في الفائزين.

ولا شك أن هذه الصفات تجعل الله مستحقًّا للعبادة، معطيًا من عطايا السعادة، وأما التقديس وحده، كما ذُكر في الإنجيل، فلا يُحرّك الروحَ للعبادة، بل يتركها كالنائم العليل.

وأما سِرُّ هذا الترتيب الذي اختاره في الفاتحة ربُّنا المجيد ذو المجد والعزة، وذكر المحامد قبل ذكر الدعاء والعبادة، فاعلم أنه فعَل ذلك ليذكّر عبادَه عظمةَ صفات البارئ ذي المجد والعلاء قبل الدعاء، ويشير إلى أنه هو المولَى لا مُنعِمَ إلا هو، ولا راحِمَ إلا هو، ولا مُجازِيَ إلا هو، ومنه يأتي كلُّ ما يأتي العباد من الآلاء والنعماء. وهذا الترتيب أحسنُ وللروح أنفع، فإنه يُظهِرُ على السعيد منن الله الرحيم، ويجعله مستعدًّا ومقبِلاً على حضرة القدير الكريم، ويَظهَر منه تموُّجٌ تامٌّ في أرواح الطلباء، كما لا يخفى على أهل الدهاء. وأما تخصيص ذكر الربوبية والرحمانية والرحيمية والمالكية في الدنيا والآخرة.. فلأجل أن هذه الصفات الأربعة أُمّهاتٌ لجميع الصفات المؤثّرة المفيضة، ولا شك أنها محرّكات قويّة لقلوب الداعين.

ثم الإنجيل يذكر الله تعالى باسم الأب، والقرآن يذكره باسم الرب، وبينهما بون بعيد، ويعلَمه من هو زكي وسعيد، وإن لم يعلمه من كان من الجاهلين. فإن لفظ الأب لفظٌ قد كثر استعماله في المخلوقين، فنَقْلُه إلى الرب تعالى فعلٌ فيه رائحة من الإشراك، وهو أقرب للإهلاك كما لا يخفى على المتدبرين.

ثم اعلم أن شكر المحسن المنَّان أمرٌ معقول مسلَّم عند ذوي العقول والعرفان، وإذا كان المحسن مع إحسانه العام ورحمه التام، خالقَ الأشياءِ وقيّوم العالم من الابتداء إلى الانتهاء، وكان في يده كل أمر الجزاء، فيضطر الإنسان طبعًا ليرجع إلى جنابه، ويتذلل على بابه، وينجو من تبابه، وإذا وجده فلا يَتأوَّبُه عنده هَمٌّ، ولا يُفزِعه وَهْمٌ، ويكون من المطمئنين. وهذا الأمر داخلٌ في فطرته، ومركوز في جِبِلّته، ومتنقشٌ في مُهْجته، أنه يطلُب صاحبَ هذه الصفات عند الترددات، ويؤُمّ به المخرج من المشكلات. والطالبون يتعاطون بذكره كأسَ المنافثة، ويقتدحون لطلبه زنادَ المباحثة، ويجوبون البراري والفلوات، ويطلبون أثر ذلك الجامع للبركات، وقاضي الحاجات، ويبيتون مجاهدين. فبشّر الله عبادَه أنه هو، وأنه مقصد ملامح عيونهم، ومقصود مرامي لحظهم، ومدار شؤونهم، فليطلبوه إن كانوا طالبين. ومن هذا المقام يظهَر عظمةُ الفاتحة، وكونُه من الله العلام، فإنها مملوءة من كل دواء، وعلاج لكل داء، ومَنْجَى من كل بلاء، يقوّي الضعفاء، ويبشّر الصلحاء، ويفتح أبواب الخير وسُدَدَه، ويعطي كلَّ ذي رشد رشده، إلا الذي أحاط عليه غباوته وشقاوته فصار من الهالكين.

وانظرْ إلى كمال ترتيب الفاتحة من الله ذي الجلال والعزّة، كيف قدّم ذِكْرَ اسم الله في العبارة، وجعَله سرًّا مجملا لتفاصيل الصفات الأربعة، وزيّن العبارةَ بكمال لطائف البلاغة، ثم أردفَه صفةَ الربوبية العامة، فإن الله كان ككنز مخفي من أعين أهل المعرفة، فأوّلُ ما عرَّفه

كانت ربوبيتُه بكمال الحكمة والقدرة. ثم ذكَر الله في الفاتحة رحمانية وبعدها رحيمية وقفّاها مالكية، فوضَعها طباقًا، وطبَّقها إشراقا، وجعل بعضها فوق بعض وضعًا، كما كان مدارجها طبعا، وفيه آيات للمتدبرين. وعلّم اللهُ عباده أن يقدّموا هذه المحامد بين يديه، ويسألوا الهداية والاستقامة بعد الثناء عليه، لتكون هذه الصفات وتصوُّرُها سببًا لفور عيون الروحانية، ووسيلة للحضور والذوق والمواجيد التعبدية، وليُستجاب الدعاء بهذا الحضور، ويكون موجبا لأنواع السرور والنور والبُعد عن المعاصي والفجور، لأن العبد إذا عرف أنه يعبد ربًّا أحاط ذاتُه جميعَ أنواع المحامد، وهو قادر على أن يستجيب جميع أدعية المحامد، وعرَف أنه ربٌّ عظيم يوجد فيه جميع أنواع الربوبية، ورحمن كريم يوجد فيه جميع أقسام الرحمانية، ورحيم قديم يوجد فيه كل أصناف الرحيمية، ومالِكُ مجازاة يقدر على أن يجزي كل ذي مرتبة في الإخلاص على حسب المرتبة، فيجد ذاتَه عظيمَ الشأن في القدرة، ويجد عظمةَ صفاته خارجةً من الإحاطة، فيسعى إلى بابه، ويبادر إلى جنابه، قائلا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فيجمع في هذا الكلام انكسار العبد وجلال رب العالمين. فهذا الاجتماع المبارك يقطع عرق الاسترابة، ويكون سببا قريبا للاستجابة، فيكون الداعي من المقبولين، بل ممن لا يشقى بهم جليس، ولا يقربهم غُولٌ ولا تلبيس، ولا يخِيب فيهم مظنون، وتُرفَع حُجبهم فلا يُطوى دونهم مكنون، فيطلع على ما حَكَّ في صدور الناس، وعلى أمور سماوية متعالية عن طور العقل

والقياس، ويدخل في أهل السرّ والقرب والمكلَّمين. ويكون له الرب الكريم كالخِلّ الودود، والخِدْن المودود، بل أقرب من كل قريب، وأحبَّ من كل حبيب، ويكون كلامه أحلى من كل شربة، وإلهامه ألذّ من كل لذّة، ويدخُل الله في القلب ويشغَفه حُبًّا، وينظر إلى المحِبِّ فيجعله لُبًّا، ويصبّغه بصبغ المتبتّلين. ويأتيه منه البرهان، والنور واللمعان، والعلم والعرفان، فلا يسعه الكتمان، ولو اختفى في مغارة الأرضين، فسبحان ربّنا ربِّ الأولين والآخرين.

واعلموا أيها الناظرون والعلماء المستبصرون أن عيسى عليه السلام علّم تمهيدًا قبل الدعاء، والقرآن علّم تمهيدا قبل الدعاء، والفرق بينهما ظاهر على أهل الدهاء، فإن تمهيد القرآن يُحرّك الروح إلى عبادة الرحمن، ويحرّك العباد إلى أن ينتجعوا حضرتَه بإمحاض النيّة وإخلاص الجَنان، ويَظهَر عليهم أنه عينُ كل رحمة وينبوعُ جميع أنواع الحنان، ومخصوص باسم الرب والرحمن والرحيم والديّان، فالذين يطّلعون على هذه الصفات فلا يزايلون أهلَها ولو سقطوا في فلوات الممات، بل يسعون إليه ويوطنون لديه بصدق القلب وصحّة النيّات، ويتراكضون إليه خيلَهم ويسعون كالمشوق، ويضطرم فيهم هوى المعشوق، فلا يناقش أهواءٌ أخرى عند غلبة هوى رب العالمين. فثبت أن في تمهيد هذا الدعاء تحريكا عظيما للعابدين، فإن العبد إذا تدبّرَ في صفات جعَلها الله مقدّمة لدعاء الفاتحة، وعلِم أنها مشتملة على صفات كماله ونُعوت جلاله باستيفاء الإحاطة، ومحرّكة لأنواع الشوق والمحبة، وعلِم

أن ربّه مبدأٌ لجميع الفيوض، ومنبع لجميع الخيرات، ودافعٌ لجميع الآفات، ومالكٌ لكل أنواع المجازاة، منه يبدأ الخَلق وإليه يرجع كل المخلوقات، وهو منزه عن العيوب والنقائص والسيئات، ومستجمِع لسائر صفات الكمال وأنواع الحسنات، فلا شك أنه يحسَبه مُنجِحَ جميعِ الحاجات، ومُنجِيًا من سائر الموبقات، فيكابد في ابتغاء مرضاته كلَّ المصائب، ولو قُتل بالسمّ الصائب، ولا يُعجِزه الكروبُ، ولا يدري ما اللغوب، ويجذبه المحبوب، ويعلم أنه هو المطلوب، وييسِّر له استقراءَ المسالك لتطلُّب مرضاة المالك، فيجاهد في سبله ولو صار كالهالك، ولا يخشى هولَ بلاء، وينبري لكل ابتلاء، ولا يبقى له من دون حُبِّه الأذكار، ولا تستهويه الأفكار، وينزل من مطيّة الأهواء، ليمتطي أفراس الرضاء، ويَضْفِر أَزِمّةَ الابتغاء، ليقطع المسافة النائية لحضرة الكبرياء، ويظلّ أبدًا له مُدانِيًا، ولا يجعل له ثانيا من الأحبّاء، ولا يَعتورِ قلبه بين الشركاء، ويقول يا ربّ تسلَّمْ قلبي، وتكفيني لجذبي وجلبي، ولن يُصبِيني حسن الآخرين.

هذه نتائج تمهيد دعاء الفاتحة، وأما تمهيد دعاء عيسى عليه السلام فقد عرفتَ حقيقته، وما فيه من الآفة، فلا حاجة إلى الإعادة، فتفكَّرْ في إيماضي، وتندَّمْ من زمان ماضي، وكُنْ من التائبين.

ثم بعد ذلك ننظر إلى دعاء علّمه عيسى، وإلى دعاء علّمه ربُّنا الأعلى، ليتبيّن ما هو الفرق بينهما لذي النُّهى، ولينتفع به من كان من الصالحين.

فاعلم أن عيسى عليه السلام علّم دعاءً يتزرّى عليه إنصافنا، أعني: "خُبْزَنا كفافَنا"، وأما القرآن فعافَ ذِكْرَ الخُبز والماء في الدعاء، وعلّمَنا طريق الرشد والاهتداء، وحثَّ على أن نقول: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ونطلب منه الدين القويم، ونعوذ به من طرق المغضوب عليهم والضالين، وأشار إلى أن راحة الدنيا والآخرة تابعةٌ لطلب الصراط وإخلاص الطاعة، فانظرْ إلى دعاء الإنجيل ودعاء القرآن من الرب الجليل، وكن من المنصفين.

وأما ما جاء في دعاء عيسى ترغيب في الاستغفار، فهو تأكيد لدعاء طلبِ الخبز كأهل الاضطرار، لعل الله يرحم ويعطي خبزا كثيرا عند هذا الإقرار، فالاستغفار تضرُّعٌ لطلب الرغفان، وأصل الأمر هو طلب الخبز من الله المنّان. ويثبُت من هذا الدعاء أن أكثر أُمم عيسى كانوا عشّاق الذهب واللُّجَين، وهاجِرِي الحقِّ للحجرَين، وبائعي الدين ببخسٍ من الدراهم، ومختبِني خلاصةِ النضّ وتاركي ذيلِ الرب الراحم، والعاثين عاصين. وحُبِّبَ إليهم أن يتخذوا الطمع شِرعةً، وحُبَّ الدنيا نُجعةً. فاستشرِفِ الأناجيلَ ليظهَر عليك صدقُ ما قيل، واتّق الرب الجليل، ودَعِ الأقاويل، ولا تحسب الحق الصريح كالمعضلات، واستوضِحْ مني المشكلات، لأُخبرك عن أنباء العُصاة والمنجِيات والمهلِكات، ففَتِّشِ الحقَّ قبل حُموم الحِمام، وهجوم الآلام، ونزعِ الروح وحصر الكلام، واعلم أن الخير كله في الإسلام، فطوبى للذي ضرب

الخيام في هذا المقام، وقوّى يقينَه بالإلهام ووحي الله العلام، وردّاه الله رداءَ الإكرام.

إن المسلمين قوم سجاياهم إعلاءُ كلمة التوحيد، وبذلُ النفس ابتغاءَ مرضاة الله الوحيد، وصلحاؤهم يتأفّفون من الدنيا بل من الإمرة، ولا يتخيرون لأنفسهم إلا وجه رب ذي العزة، ولا يُشجِيهم إلا آنُ غفلةٍ مِن ذِكر الحضرة، يتوكلون عليه ويطلبون منه هداه، ولا يركنون إلى الخَلق بل يبتغون حُباه، ويمشون في الأرض هونًا، ولا يبطِشون جبّارين. وشأنُهم إطالةُ الفكرة، وتحقيق الحق وتنقيح الحكمة. يراعون في الرياسة تهذُّبَ السياسة، وفي أوان الخصاصة والافتقار آدابَ التبصر والاصطبار. ولا تفاضُل فيهم إلا بتفاضل التقوى والتقاة، ولا ربَّ لهم إلا ربّ الكائنات. وكل ذلك أنوار حاصلة من الفاتحة كما لا يخفى على أهل الفطرة الصحيحة والتجربة. فالحق أن الفاتحة أحاطت كل علم ومعرفة، واشتملت على كلِّ دقيقةِ حقٍّ وحكمة، وهي تجيب كل سائل، وتذيب كل عدو صائل، ويطعم كلَّ نزيلٍ إلى التضيّف مائلٍ، ويسقي الواردين والصادرين. ولا شك أنها تزيل كل شك خيّب، وتجيح كل هم شَيَّبَ، وتعيد كلّ هُدُوٍّ تَغيَّبَ، وتُخجِل كلَّ خصيم نَيَّبَ، ويبشر الطالبين. ولا معالج كمثله لسمّ الذنوب وزيغ القلوب، وهو الموصِل إلى الحق واليقين.

وأما الهداية التي قد أُمِرنا لطلبها في الفاتحة فهو اقتداءُ محامدِ ذات الله وصفاته الأربعة، وإلى هذا يشير اللام الذي موجود في: ﴿اِهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ويعرِفه من أعطاه الله الفهمَ السليم. ولا شك أن هذه الصفات أُمّهات الصفات، وهي كافية لتطهير الناس من الهَنات وأنواع السيئات، فلا يؤمن بها عبد إلا بعد أن يأخذ من كل صفة حظَّه ويتخلق بأخلاق رب الكائنات. فمن استفاض منها فيُفتَح عليه باب عظيم من معرفة الرب المحبوب، وتتجلى له عظمتُه، فتحصُل الأمانةُ والتنفُّرُ من الذنوب، والسكينةُ والإخبات والامتثال الحقيقي والخشية والأنس والذوق والشوق والمواجيد الصحيحة والمحبة الذاتية المفنِية المحرقة بإذن الله مُربِّي السالكين.

وهذه كلها ثمرات التدبر في مضامين الفاتحة، فإنها شجرة طيبة تؤتي كلَّ حين أُكُلاً من المعرفة، ويروي من كأس الحق والحكمة، فمن فتَح باب قلبه لقبول نورها، فيدخل فيه نورها، ويطّلع على مستورها، ومن غلّق الباب فدعا ظلمتَه إليه بفعله، ورأى التبابَ ولحِق بالهالكين.

ثم اعلم أن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدل على أن السعادة كلها في اقتداء صفات رب العالمين. وحقيقةُ العبادة الانصباغُ بصبغ المعبود، وهو عند أهل الحق كمال السعود، فإن العبد لا يكون عبدا في الحقيقة عند ذوي العرفان، إلا بعد أن تصير صفاتُه أظلالَ صفاتِ الرحمن، فمِن أمارات العبودية أن تتولد فيه ربوبيةٌ كربوبية حضرة العزة، وكذلك الرحمانية والرحيمية وصفة المجازاة، أظلالاً لصفات الحضرة الأحدية. وهذا الصراط المستقيم الذي أُمِرنا لنطلبه، والشرعةُ التي أوصينا لنرقُبها مِن كريم ذي الفضل المبين.

ثم لما كان المانع من تحصيل تلك الدرجات الرياءَ الذي يأكل الحسنات، والكبرَ الذي هو رأس السيئات، والضلالَ الذي يُبعِد عن طرق السعادات، أشار إلى دواء هذه العلل المهلكات، رحمةً منه على الضعفاء المستعدّين للخطيّات وترحّمًا على السالكين، فأمَر أن يقول الناس: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لِيُستخلَصوا من مرض الرياء، وأمَر أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليُستخلَصُوا من مرض الكبر والخيلاء، وأمر أن يقولوا: ﴿اِهْدِنَا﴾ ليُستخلَصوا من الضلالات والأهواء. فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حثٌّ على تحصيل الخلوص والعبودية التامة، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارةٌ إلى طلب القوّة والثبات والاستقامة، وقوله: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ إشارةٌ إلى طلب علمٍ مِن عنده وهدايةٍ من لدنه لطفًا منه على وجه الكرامة. فحاصل الآيات أن أمر السلوك لا يُتمَّم أبدًا ولا يكون وسيلةً للنجاة إلا بعد كمال الإخلاص وكمال الجهد وكمال فهم الهدايات، بل كلُّ خادم لا يكون صالحا للخدمات إلا بعد تحقُّق هذه الصفات. مثلاً.. إن كان خادم مخلصا وموصوفا بأوصاف الأمانة والخلوص والعفّة، ولكن كان من الكسالى والوانين القاعدين، وكالضُجَعة النُوَمة، لا مِن أهل السعي والجهد والجدّ والقوّة، فلا شكّ أنه كَلٌّ على مولاه، ولا يستطيع أن يتّبع هداه ويكون من المطاوعين. وخادم آخر مخلص أمين، ومع ذلك مجاهد وليس بقاعد كالآخرين، ولكنه جَهول لا يفهم هداياتِ مخدومه، ويُخطئ ذاتَ مرارٍ كالضالين؛ فمن جهله ربما يجترئ على الممنوعات، ويوقع نفسه في المخاطرات

والمحظورات، ويبعد عن مرضاة المولى من جهل جاذب من الجهلات، وربما يضيع نفائس المولى ودُرره وجواهره، من كمال جهله وحمقه وسوء فهمه، ويضع الأشياء في غير محلها من زيغ وهمه، فهذا الخادم أيضا لا يستطيع أن يستحصل مرضاة المخدوم، ويُسقطه جهله كل مرة عن أعين مولاه فيبكي كالموقُوم، وكذلك يعيش دائما كالملعون الملوم، ولا يكون من الممدوحين. بل يراه المولى كالمنحوس، الذي لا يأتي بخير في سير، ويخرب بقعته ورحاله وأمواله في كل حين. وأما الخادم المبارك والعبد المتبرك الذي يُرضي مولاه، ولا يترك نكتة من هداه، ويسمع مرحباه، فهو الذي يجمع في نفسه هذه الثلاث سويًّا، ولا يؤذي مولاه بخيانة وحَذْل، ولا يُطَحْطِحه بكسل أو جهل، فيصير عبدًا مرضيًّا. فهذه هي الأشراط الثلاثة للذين يسلكون سبل ربهم مسترشدين. وفي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارةٌ إلى الشرط الأول، وإلى الشرط الثاني في ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإلى الثالث في ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾. فطوبى للذين جمعوا هذه الثلاث ورجعوا إلى ربهم كاملين، وتأدبوا مع ربهم بكل الأدب، وسلكوا بكل شريطة غير قاصرين. فأولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ودخلوا حظيرة القدس آمنين. ولما كانت هذه الشرائط أهم الأمور للذي قصد سبل النور، جعَلها اللهُ الحكيم من أجزاء الدعاء، ليتدبر السالكُ كالعقلاء، وليستبين سبيل الخائنين.

وهذا آخر ما أردنا في هذا الكتاب بفضل رب الأرباب، والحمد لله رب العالمين. والسلام على سيدنا ورسولنا محمد خاتم النبيين. رَبِّ أَمْطِرْ مطرَ السوء على مكذّبيه، واجعلْنا من المنصورين. آمين.

إتمام الحجة على المكفِّرين
من العلماء والمشايخ كلهم أجمعين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد.. فإني قد سمعتُ أنكم أيها الإخوان كفّرتموني، وكذّبتموني وحسبتموني مفتريا، وناضلتموني حتى نُثِلَت الكنائنُ، وتبيّنَ الحق وظهر الأمر الكائن، ولكن ما ركدتْ زعازِعُكم، وما أخذتْكم هيبةُ الحق، بل جُزْتم عن القصد جدًّا، وحسبتم الحق شيئا إِدًّا، وكنتم على قولكم من المصرّين.

فلما ارتبتم في أمري وصرتم قرينَ الخنّاسِ، ونَجِيَّ الوسواس، توجّستُ ما هجَس في أفكاركم، وفطنت لما بطن من استنكاركم، فصنّفتُ كتبًا قد حسُن ترتيبها، وصُفِّفَ فوجُ تَعاجيبها، وجمعتُ على التحقيق صفاءَ الدُرّ، وسَكَرَ الرحيق، وقُنُوءِ العقيق، وكان فيها إزعاجُ أوهام المتوهمين، وعلاجُ نزغات الشياطين، وإصلاح نزوات المفسدين، وبيان إعنات الباغين، ومعاناة الطاغين، ومعاداة العادين، وحِيَل المحتالين، وسطوة الجائرين، وكيد الكائدين، مع كثير من الدلائل والبراهين. وكانت أسماؤها: (١) "فتح الإسلام"، (٢) و"توضيح المرام"، (٣) و"إزالة الأوهام"، (٤) و "مرآة كمالات الإسلام".

ولكنكم ما رأيتم وتعاميتم، وكفّرتم داعيَ الله وعصيتم، وكنتم قوما عادين. وأصررتم على إنكاركم حتى انتهى أمركم إلى تكفير المسلمين

ولعن المؤمنين، وكذّبتم أسرارًا لم تحيطوا بها، وعنّفتموني على ما لم تعلموا حقيقته، وكنتم تضحكون عليّ مرتاحين. وكم مِن دلوٍ أدليتُها إلى أنهاركم، لعلّي أجد قطرة من علمكم وأخباركم، ولكنها لم ترجع ببُلّةٍ، ولم تجتلب نَقْعَ غُلّةٍ، وما زادني سُؤْلي منكم غيرَ يأسٍ وقنوط ودُرَخْمِين. فاسترجعتُ على انقراض العلم ودروسه، وأفولِ أقماره وشموسه، وذرفتْ عيناي على حال قوم فيه تلك العلماء الذين هم معروق العظم، والمبعَّدون من أسرار الدين. ومع ذلك وجدتُ كل واحد منكم سادرًا في غلوائه، وسادلاً ثوبَ خيلائه، ومُفارِقًا مِن أرجاء حيائه، ومن أكابر المفسدين.

فلما انسرتْ جلبابُ خَفْركم، وأماطت جذباتُ النفس خضراءَ قَفْرِكم، وتواترتْ ريحُ دَفْرِكم، فهِمتُ أن النصح لا يأخذ فيكم، ولا ينفعكم قولُ ناصح كما لا ينفع المتمردين. فتأوّهتُ آهةَ الثكلان، وعيناي تهمُلان، ودعوتُ الله أيامًا، سُجَّدًا وقيامًا، وخررت أمام حضرته، واستطرحت بين يديه، مبتغيًا إليه أذيال وسيلته، ورفعتُ صرخي كعقيرة المتألمين.

فرأى الله بُرَحائي، واعتداءَ أعدائي، وقلّةَ أخلّائي، وبشّرني بفتوحات وآيات وكرامات، ومَنَّ عليَّ بتأييده المبين. فمنها ما وعدني ربي في عشيرتي الأقربين، أنهم كانوا يكذّبون بآيات الله وكانوا بها يستهزئون، ويكفرون بالله ورسوله، وقالوا لا حاجة لنا إلى الله ولا إلى كتابه ولا إلى رسوله خاتم النبيين. وقالوا لا نتقبل آية حتى يُرينا الله آية

في أنفسنا، وإنّا لا نؤمن بالفرقان، ولا نعلم ما الرسالة وما الإيمان، وإنّا من الكافرين. فدعوتُ ربي بالتضرع والابتهال، ومددتُ إليه أيدي السؤال، فألهمَني ربي وقال سأريهم آية من أنفسهم، وأخبرَني وقال إنني سأجعل بنتًا من بناتهم آية لهم، فسمّاها وقال إنها ستُجْعَل ثيّبةً، ويموت بعلُها وأبوها* إلى ثلاث سنة من يوم النكاح، ثم نردها إليك بعد موتهما، ولا يكون أحدهما من العاصمين. وقال إنّا رادّوها إليك، لا تبديل لكلمات الله، إن ربك فعّال لما يريد. فقد ظهَر أحد وعديه، ومات أبوها في وقت موعود، فكونوا لوعده الآخر من المنتظرين. فتأملوا في هذا تأمُّلَ المنتقد، وانظروا بالمصباح المتّقد، هل هو فعلُ الله تعالى أو كيد المفترين؟ وهل يجوز أن يستجيب الله دعاءَ ملحد كافر كما يستجيب دعاء المقبولين؟ وكيف يخفى أمرُ رجل يُميتُ اللهُ لأجل إعزازه وإجلاله رجُلَين، ويجعله في أنبائه الغيبية من الصادقين؟ إن الله لا يُظهِر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسولٍ الذي أرسله لإصلاح الخلق في زيّ الأنبياء والمحدَّثين.

* واسم بعلها سلطان محمد ابن محمد بيك، ومحمد بيك ابن نظام الدين، واسم عم بعلها محمود بيك، وهم سكان قرية منحوسة المسماة "فَتّى" في ضلع لاهور. واسم أبيها مرزا أحمد بيك، وتُوُفِّيَ بعد إلهامي هذا في ميعاد الإلهام. وأما بعلها سلطان محمد فحَيٌّ، وبقِي من ميعاد موته قريبا من السنة. ربنا افتَحْ بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. منه. ١صفر سنة ١٣١٠هـ.

ومنها ما وعدني ربي واستجاب دعائي في رجل مفسد عدو الله ورسوله المسمى ليكهرام الفشاوري، وأخبرني أنه من الهالكين. إنه كان يسبّ نبيَّ الله ويتكلم في شأنه بكلمات خبيثة، فدعوتُ عليه، فبشّرني ربي بموته في ستّ سنة، إن في ذلك لآية للطالبين.

ومنها ما وعدني ربي إذ جادلَني رجل من المتنصرين الذي اسمه عبد الله آتهم العنبرسري، إنه كان أراد أن يشدّ جبائر الحِيَلِ على دين النصارى، ويواري سَوْءَتَه، فصال على الإسلام وكان من المتشددين. وباحَثَني في حلقة مغتصّة بالأنام، مختصّة بالزحام، وزخرفَ مكائده لإرضاءِ الكافرين. فثنَيتُ إليه عِناني، وأبثثُه من معارف بياني، وجعلته من المفحَمين. فما وجم مِن قلّة الحياء، وكان يجمَح في جهلاته ويسدُر في الغلواء. وامتدّت المباحثة إلى نصف الشهر، وكنا نغدو إليه بعد صلاة الفجر، ونرجع في وقت الهجير عند اشتداد حرّ الظهيرة، وتركنا الاستراحة كالمجاهدين. فبينما أنا في فكر لأجل ظفر الإسلام وإفحام اللئام، فإذا بشّرني ربي بعد دعوتي بموته إلى خمسة عشر أشهر من يوم خاتمة البحث، فاستيقظت وكنت من المطمئنين. ثم جئناه واجتمعت الحلقة، وحضر الخاص والعام، وأُحضِرت الدواة والأقلام، فما لبثتُ أن قعدتُ وأنبأتُ مِن كل ما أُخبِرتُ من رب الأرباب، وأمليتُه في الكتاب، ثم ارتحلت من دار غربتي، وحسبت ذلك البحث أفضل قُربتي، وحسبت ذلك النبأ نعمة من نعماء رب العالمين.

فتفكروا عافاكم الله ولا تعجلوا في تكفيري، ولا تسُبُّوا ولا تقذِفوا، وإن كنتم في شك فانتظروا هذه الأنباء المذكورة، فإنها معيار لصدقي وكذبي. وإن لم تنتهوا فقد تمّتْ عليكم حجّة الله وحجّتي، ولن تضرّوني شيئا، وستُسألون عند مالك يوم الدين. وإن تتوبوا وتتقوا فالله لا يُضيع أجر المحسنين.

بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين. والصلاة والسلام على سيّد وُلد آدم سيّد الرسل والأنبياء، أصفى الأصفياء، محمد خاتم النبيين، وآله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فيقول العبد الضعيف المفتقر إلى الله القوي الأمين، نور الدين.. عصَمه الله من الآفات، وأدخله في زُمرة الآمنين، وجعله كاسمه: **نور الدين**.. إني قد كنتُ لَهِجتُ مُنْذ رأيتُ المفاسد من أهل الزمان، وشاهدت تغيُّر الأديان، أن أُرزَق رؤيةَ رجل يجدّد هذا الدين، ويرجم الشياطين. وكنت أرجو هذه المنية لأن الله قد بشَّر المؤمنين في كتاب مبين، وقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِين آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ☆﴾ إلى آخر ما قال رب العالمين. وكذا قال الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحَى وهو الصدوق الأمين ﷺ: "إن الله يبعث في هذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَن يجدّد لها دينها"، فكنتُ لِرحمتِه من المنتظرين. فقصدتُ لهذه البُغْية بيتَ الله مهبطَ أنوار الحق واليقين، فكنتُ أجوبُ البراري، وأقطع الصحاري، وأستقري عبدًا من العباد الربّانيين.

فتوسَّمتُ في البقعة المباركة المكرّمة شيخي الشيخ السيد حسين المهاجر الورع الزاهد التقيّ، وشيخي الشيخ محمد الخزرجي الأنصاري،

☆ *النور:٥٦*

وفي طابة الطَيبة تشرفتُ بلقاء شيخي وسيدي ومولائي الشيخ عبد الغني المجددي الأحمدي، وكلهم كانوا، كما أظن، من المتّقين، جزاهم الله عنّي أحسن الجزاء، آمين يا رب العالمين. وهؤلاء الشيوخ – رحمهم الله – كانوا على أعلى المراتب من التقوى والعلم، ولكن لم يكونوا على أعداء الدين من القائمين، ولا لشُبهاتهم مستأصلين، بل في الزوايا متعبدين، وبمناجاة ربهم مُتخلّين.

وما رأيت في العلماء مَن توجّه إلى دعوة النصارى، والآرية، والبراهمة، والدهريّة، والفلاسفة، والمعتزلة، وأمثالهم من الفِرق المضلّين. بل رأيتُ في الهند ما ينيف على تسع مئة ألف من الطلبة رفضوا العلوم الدينية، واختاروا عليها العلوم الإنكليزية، والألسنة الأوربية، واتخذوا بِطانةً من دون المؤمنين، وأَزْيَدَ مِن ستين ألف ألف رسالة طُبعت في مقابلة الإسلام والمسلمين. هذه المصيبة، وعليها نسمع المشائخ وأتباعهم أنهم يقولون إن الدعوة والمناظرات خلاف دَيْدَنِ أهل الكمال وأصحاب اليقين. وعُلماؤنا.. إلا من شاء الله.. ما يعلمون ما يُفعَلَ بالدين وأهل الدين. والمتكلمون منتهى تدقيقاتهم مسألة إمكان كذب البارئ – نعوذ بالله – وامتناعه لا لتبكيت الكافرين وردّ مكائد المعاندين. ومع هذه الشكوى، فنشكر مساعي الشيخ الأجلّ وأستاذي الأكمل رحمة الله الهندي المكّي، والدكتور وزير خان، رحمهما الله تعالى، والسيد الإمام أبي المنصور الدهلوي، والزكي الفطِن السيد محمد على الكانفوري، والسيد اللبيب مصنِّفُ "تنزيه القرآن"، وأمثالهم

سلّمهم الله، فشكر الله سعيهم وهو خير الشاكرين. لكن جهادهم مع شعبة واحدة من مخالفي الإسلام، ثم ما كان بالآيات السماوية والبشارات الإلهية.

وكنتُ حريصًا على رؤية رَجُلٍ.. أيْ رَجُلٍ واحدٍ من أفراد الدهر قائمٍ في المضمار لتأييد الدين وإفحام المخاصمين. فرجعتُ إلى الوطن وأنا كالهائم الوَلَهان أَخبِطُ ورقَ نهاري بعصا تَسْياري، ومن المتعطشين الطالبين.

فبينما أنتظر النداء من الصادقين.. إذ جاءتني بشارة من جناب السيد الأجَلِّ، والعالِم الحبر الأبلِّ، مجدّد المئة، ومهدي الزمان، ومسيح الدوران، مؤلّف "**البراهين**". فجئتُه لأنظر حقيقة الحال، فتفرّستُ أنه هو الموعود الحَكَم العَدْل، وأنه الذي انتدبَه الله لتجديد الدين، فقال **لَبَّيْك يا إلهَ العالمين**. فسجدتُ لله شكرًا على هذه المِنّة العظيمة، لك الحمد والشكر والنعمة يا أرحم الراحمين.

ثم اخترتُ محبّتَه، واستحسنتُ بيعته، حتى غمرتْني رأفتُه، وغشِيتني مودّته، وصرتُ في حبه من المشغوفين. فآثرتُه على طارفي وتالِدي، بل على نفسي وأهلي ووالدي، وأعزّتي الأقربين. أصبى قلبي علمُه وعرفانه، فشكرًا لمن أتاح لي لُقْيانه. ومِن سعادة جَدّي أني آثرتُه على العالمين، فشمّرتُ في خدمته تشميرَ من لا يألو في ميدانٍ من الميادين، فالحمد لله الذي أحسن إليَّ وهو خير المحسنين.

فَوَاللهِ مُذْ لاقَيتُه زادني الهُدى وعرفتُ مِن تفهيمِ أحمَدَ أحمَدَا
وكم مِن عويصٍ مشكلٍ غيرِ واضحٍ أنارَ عليَّ فصرتُ منه مُسهِّدا
وما إنْ رأينا مثلَه بطلاً بدا وما إنْ رأينا مثله قاتِلَ العِدا
وأكفَرَه قومٌ جَهول وظالمٌ وكذّبه مَن كان فَظًّا ومُلحِدا
وهذا على الإسلام إحدى المصائبِ يُكفَّرُ مَن جاء النبيَّ مُؤيّدا
أفي القومِ تُمدَح يا مُكفِّرَ صادِقٍ ألا إنّ أهل الحق سمَّوك مُفْندا
نبَذتَ هُدى العرفان جهلاً وبعدَه أخذتَ طريقًا قد دعاك إلى الرَّدى
وإن كنتَ تسعى اليومَ في الأرض مفسِدًا فتُحرَق في يوم النشور مُزوّدا
ولو قَبْلَ إكفارٍ تفكّرتَ ساعةً لَعَمْري هُديتُ وما أبيتَ تبدُّدا
قصدتَ لتُرضي القومَ مِن سوء نية وكان رِضَى الباري أتمَّ وأوكَدا
وما في يديك لَتُبْعِدَنَّ مقرَّبًا إله البرايا قد دناه وأحمدا
وقد كنتَ تقبَل صدقَه وكتبتَه فمِثلُك كُفرًا ما رأينا ضَفَنْدَدا
ألا إنه قد فاق صدقًا خواصَّكم ودافَ رؤوسَ الصائلين وأَرْجَدا
أتُكفِرُ يا غُولَ البراري مثيلَه أتلعَنُ مقبولا يحبّ محمّدا
وتعسًا لكم يا زُمْرَ شيخٍ مزوّرٍ هلكتم وأرداكم وعفّى وأفسَدا
له كُتُبُ السبِّ والشتم حَشْوُها شريرٌ ويستقري الشرور تعمُّدا
أضلَّ كثيرا مِن ضلالات وَهْمِه وباعدَ مِن حق مبين وأبعَدا
وما إنْ أرى فيه الفضيلةَ خاصةً نعَمْ في طريق المفسدين تَفرَّدا
يُشيع رسالاتٍ لِبَغْيِ ثَرائدٍ ولِيجلِبَ الحُمْقى إليها ويُرفِدا
وما كان لي بغضٌ به وعداوةٌ وفي الله عادَيناه إذ ذمَّ أحمَدا
فخُذْ يا إلهي رأسَ كلّ معاند كأَخْذِك مَن عادى وليًّا وشدّدا

لتكون آيات لكلّ مكذّب ... حريصٍ على سبٍّ مُباهٍ تحسُّدا
ويا طالبَ العرفان خُذْ ذيلَ نوره ... ودَعْ كلَّ ذي قول بقول المهتدى
وفي الدين أسرارٌ وسبلٌ خفيّة ... يلاحظها بصرٌ يلاقي إثْمَدا
وآخر دعوانا أن الحمد كله ... لرَبٍّ رحيم بعث فينا مجدّدا

قد تمت هذه القصائد، وقد أحببنا أن نلحقها ببعض قصائد بليغة فصيحة، من كلام الأديب المفلِق السيد محمد سعيد الشامي الطرابلسي - سلّمه الله تعالى - قد نظمها ومدَح بها سيّدَنا ومرشدَنا المشارَ إليه فيها، وهجا الفرقةَ النصرانية ومن خالَفَه.

خضَعتْ لِرفعةِ مجدِك العظماءُ ... وأتتْك تسحَب ذيلَها العَلياءُ
ورنَتْ إليك مع الوقار وسلّمتْ ... وتفاخرتْ بمديحك الشعراءُ
ولك الأمان من الزمان وما على ... مَنْ لاذَ فيك من الزمان عَناءُ
قد حُزْتَ فضلاً مِن إلهك فوق ما ... قد حازَه مِن قبلك الآباءُ
وحوَيتَ علمًا ليس فيه مشارِكٌ ... لك في الأنام وللإله عطاءُ
يا مَن إذا نزَل الوفودُ ببابه ... أغناهُمُ عمّا إليه جاءوا
أنت الذي وعَد الرسولُ وحبَّذا ... وعدٌ به قد صحّت الأنباءُ
أنت الذي إنْ حلَّ جَدْبٌ في الملا ... ودعوتَ ربَّك حَلَّه الإرواءُ
طُوبى لعبدٍ قد رضا بك ملجأً ... إذ لا يخيب وراحتاه مَلاءُ
طوبى لقومٍ أنت بيضةُ مُلكهم ... وكذا العصر أنت فيه ذُكاءُ

طوبى لدارٍ أنت فيها قاطنٌ ... فلقد بدَتْ في سَوْحها الزَّهْراءُ
يا أيها الحبْرُ الأجلّ ومَن به ... يرجى المراد وتُكشَف الضَّرّاءُ
إني لأرغب أن أرى لك سيدي ... وجهًا عليه من الجمال رِداءُ
يا واحدا في ذاته وصفاته ... قد حقّقتْ بوجودك الأشياءُ
وبك استقامت للعلا أركانُه ... وتزيّنتْ بمقامك الجَوْزاءُ
أيّدتَ دينَ الحق يا عَلَمَ الهدى ... وأبَنْتَ طرقًا طَمَّها الجهلاءُ
ورفعتَ للإسلام حصنًا باذخًا ... تفنى الدهورُ وما يليه فناءُ
ونكَأْتَ أهلَ الشِّرك حتى أصبحوا ... في غيّهم قد مَسَّهم إقواءُ
وسلَلْتَ سيفًا للشريعة بينهم ... لما رأوه أَكَبَّهم أعباءُ
ما زلتَ تضرب فيهمِ حتى انثنَوا ... مِن وَقْعِه فكأنهم أهباءُ
جاؤوا لينتصروا عليك وما دَرَوا ... أن الإله عليك منه لِواءُ
صالُوا وامُوا أن يفوزوا بالذي ... قصَدوا إليه فصَدَّهم إعياءُ
وتفرّقتْ أحزابهم لما رأوا ... أسدًا هَصُورًا كَفُّه عَضْباءُ
ما ضَرَّهم لو آمنوا إذ جئتَهم ... بل كذّبوك فخابت الآراءُ
هيهاتَ أن يصِلوا إلى ما أمّلوا ... حتى تَلينَ وتُنبِتَ الصَّمّاءُ
بئسَ الذي قصدوا إليه من الردى ... وتنزّلتْ بقلوبهم بَأْساءُ
ضلّوا وقالوا إنّ عيسى لم يَمُتْ ... بل في السماء وأين منه سَماءُ
قد مات عيسى مثلَ موتةِ أُمّه ... والموتُ حقٌّ ليس فيه خفاءُ
مَن كان ينكر ذا فليس بمؤمن ... فيما أرى والربُّ منه بَراءُ
إنْ كان عيسى يأتيَنَّ بُعيدَ ما ... ذاقَ الحِمامَ فهكذا القدماءُ

لا مرحبًا بهم ولا أهلاً ولا ... سهلاً ولا حمَلتْهم الغَبْراءُ
كلا ولا برِحتْ صباحًا مع مسا ... مَرَّ الدهورِ تجُذُّهم حَصْباءُ
قوم كأنهم الذياب إذا عوَتْ ... فاستحوذتْها أَكْلُبٌ ورُعاءُ
لا يقرَبون من الحلال وعندهم ... إن الحلال طريقة شَنْعاءُ
وإلى الحرام شواخصٌ أبصارُهم ... إن الحرام لمن يرُمْه غذاءُ
يا أيها البحر الذي ما مِثلُه ... بحرٌ وما لجميله إحصاءُ
بل أيها الغيث الذي أنواؤه ... فعلتْ بما لا تفعل الأنواءُ
حيّاك ربّي كلما هبّتْ صبا ... نَجْدٍ وما قد غنّتِ الوَرْقاءُ
أو ما تَرنَّمَ في مديحك مُنشِدٌ ... خضعَتْ لرفعةِ مجدك العظماءُ

السيد محمد سعيد الشامي

وله رحمه الله تعالى

حمدٌ عزيزٌ صادقُ الإذعانِ ... للهِ ربٍّ دائمِ الغفرانِ
فردٌ كثيرُ العفو والإحسانِ ... مُنْشِي الأنامِ ومُنْزِلِ الفرقانِ
إذ قد أُبِيرتْ دولةُ الصلبانِ ... مِن وَقْعِ شهمٍ حاذِقِ الطعانِ
في الحرب إذ يعدو بحدِّ سِنانِ ... مُحْيِ المِنونِ ومُوقِدُ النيرانِ
كالليث صادَفَ رَعْلةَ الضِبّعانِ ... في يومِ مخمصةٍ على أَسوانِ
أسدٌ هِزَبْرٌ ثابتُ الجَنانِ ... لم يكترثْ بكثرة الفرسانِ
بَتَلَ الشكوكَ بقاطِعِ البرهانِ ... ودلائلٍ قرّتْ بها العينانِ

حَبْرٌ أَمَدَّ موائدَ العرفانِ وأَسَحَّ أَبْحُرَها على الظمآنِ
ردَع الخصومَ بقدرة المنّانِ يَدْعون ويلاً نُكَّسَ الأذقانِ
يا أيها المولى العظيمُ الشانِ هيهاتَ عيني أن ترى لك ثانِ
إذ كنتَ عَلَمًا فخرَ كلّ زمانِ ولقد تناقَلَ فضلَك الثَّقَلانِ
فانعَمْ ودُمْ بالعز والأمانِ ما هَزَّ ريحٌ مُيَّدَ الأغصانِ

ولَهُ رحمه الله تعالى متغزلا وممتدحا لجناب المشار إليه رحِمه الله

ألا لا أرى مَن أحبّ بعيني وعدوّي أراه بكرةً وأصيلا
يا لقومي ويا لصَحْبي الْحَقُوني وأدرِكوني فقد غدَوتُ قتيلا
مِن لِحاظٍ راشقاتٍ بقلبي أسهُمًا عنه لا ترى تحويلا
وخدودٍ أينعَ الشقيقُ عليها ورُضابٍ مِزاجُه زنجبيلا
ظَبْية ٍ من قاديان سبَتْني إذ رنَتْ رنْوةً وطرفًا كحيلا
حبَّذا قَدُّها إذا يتثنى كتثنّي الغصونِ ذُلّلتْ تذليلا
ما الشمس عندي ولا البدر فاعلَمْ في حُلاها أرى لها تمثيلا
كلا ولستُ في الجَنان براضٍ بسواها إن أراها بديلا
ولقد أراني بعد ما كنتُ ليثًا مُصْمَئِلاًّ عَمْثَهِلاّ خَنْشَلِيلا
يرهَب الأحمَسُ المدجَّج صوتي وبعيني يرى العزيزَ ذليلا
تسحَب النملةُ، يا فدَيتُك، جسمي وابنُ آوي يدعو عليَّ العويلا
غيرَ أني وإن جُننتُ غرامًا في هواها لأصبِرنّ جميلا

فعسى الهُمام الذي إليه المطايا قد تخطّتْ تَلائعًا وسهولا
خيرُ عبدٍ يراه أشرفُ قوم مَن لعيسى المسيحِ أضحى مثيلا
إن يراني ويكشف ما بي عن قريب قبلَ أنوي الرحيلا

وقال – رحمه الله تعالى – مقرّظًا على هذا الكتاب المبارك ومادحًا للجناب الأقدس نفَع الله به المسلمين

كتابٌ حكى زَهْرَ الربيع نضارةً وحوى مِن النظم البديع طُروسا
يُغني الأديبَ فكاهةً ومسرّةً عن أن يكون له الحبيب جليسا
قد صاغه الحَبْرُ الذي أنوارهُ تَدَعُ الليالَ إذا دَجَينَ شُموسا
للهِ دَرُّ القاديان فإنها كالشام حيث أقام فيها عيسى
بلدٌ بها غيثُ المواهب قد همَى وتقدستْ أرجاؤها تقديسا
فكأنما هي إيلياءٌ إذ حوَتْ جبلاً حباه ربُّه الناموسا
قَرْمٌ تقاصَرَ عن ثناء خصاله فُوهُ الزمان ولا يرى تدليسا
بحرٌ تلاطمَ بالمعارف موجُهُ شَهْمٌ علا رُتَبَ الكمال عروسا

وقال مقرّظا عليه أيضا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيد المرسلين.

أما بعد.. فإني قد سرّحتُ طرفي في مضمار حَلْبة البيان، وأجَلْتُ قِداح فكري في حديقة بستان الأذهان، أعني العُجالةِ التي ابتكرها نتيجةُ أفكار الزمان، ومحطُّ رجال العرفان، نابغةُ دهره، وسحبانُ قطره، سيدُنا ومرشدنا مسيح الزمان، مركزُ العز والأمان، الشيخُ العالم العلاّمة، الحَبرُ الفاضل الجِهْبِذ الفهّامة، سَمِيُّ مَن أُنزِل عليه الفرقان، سيّدِ وُلْدِ عدنان، عليه الصلاة والسلام، أحمد الفِعال والخِصال، أدام الله عليه سوابغ الإجلال ومنابع الأفضال، ولا زال مرفوع الجناب مقبَّل الأعتاب، فوجدتُها القِدْح المعلَّى، والدُّرّة اليتيمة، والروضة الأريضة، والحديقة المثمرة، وكيف لا ومُوجِدها حَبرٌ يشار إليه بالأنامل، وبحرٌ ليس له من ساحل، فكأنما قد عنَيتُه بقولي إذ كان به أحرى، وبسِرّه أدرى.

هيهاتَ يوجد في الزمان نظيره ولقد حلفتُ بأنه لا يوجدُ
بالله ربِّ الراقصات إلى مِنَى والقائمين ظلامَهم يتهجدوا

فللهِ دَرُّه، ولا فُضَّ فُوه، ولا عدمه بنوه، إذ قد أحسنَ وأجادَ، وبالَغَ فيما به أفاد.

تَـمَّـتْ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أطلعَ شموسَ الهداية في قلوب أهل العرفان، وأطمعَ نفوس أهل الغواية في ورود منهل الغفران، وأنبعَ ينابيع المكارم ليَرِدَ على زلالها كلُّ ظمآن، ورفَع منابر التقديس والتحميد وخفَض أعلام البهتان. والصلاة والسلام على سيد وُلدِ عدنان، سيدِنا ونبينا محمدٍ الذي أتى بالبيان، وعلى آله وأصحابه وأزواجه في كل وقت وأوان.

أما بعد.. فيقول أسيرُ ذنبه، وفقير عفو ربه المنّان، محمد الطرابلسي الشامي الشهير بحميدان، إنني لما دخلتُ الهند وبلدة قاديان، واجتمعتُ بحَبْرها بل وحَبْرِ جميع البلدان، مولانا وسيدنا الشيخ **ميرزا غلام أحمد** صاحِب الوقت ومسيح الزمان، واطلعتُ على هذا الكتاب.. فإذا كتاب إذا ما لمحتُه استملحتُه، وإني أراه قد انتضى الحججَ، لإزعاج المخالفين وإفحام المخاصمين ذوي العِوَج، أعطى كلَّ ذي سهم سهمه، وما أخطأ سهمه. يدعو الضالين إلى الصلاح، وما يدَع نُكتةً من لوازم الفلاح، وجَب على المسلمين إطاعة أمره، وقد أُشرِبَ قلبي أنه من الصادقين، والله حسيب، وهو يعلم سر الناس وجهرهم، ويعلم ما في السماوات والأرضين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رؤيا غريبة

اعلموا أني قمتُ في عجز الليل على العادة لصلاة الفجر، ثم بعد أدائها غلبتْني عيني بالنوم، فرأيتُ كأن مرشدنا - رحمه الله تعالى - قد صنع طعامًا كثيرا فاخرا، ودعا إليه جمًّا غفيرا من الخَلق، من بلاد مختلفة عربًا وعجمًا، ثم بسَط سُفَرًا وموائدَ عديدة، وجلس عليها أولئك القوم.. عشرة عشرة.. وأنا معهم في أُخراهم، فأكلوا وقاموا وبقيتُ منفردا. فداخلَني الخجلُ وقمتُ غيرَ شبعٍ. فنظرتُ عن يميني مكانا مملوءًا من المرَق، فصرتُ أغُبُّ منه حتى اكتفيت. ثم انتهيت وانتهى الناس إلى مكان المذكورِ، وقد فُرِش بأنواع الفُرُش النفيسة، فجلسوا بحسب مراتبهم، وفيهم العلماء والأمراء وغيرهم. فقام رجل منهم يعِظ الناس على طريقة الفقهاء الحنفية، وكأنه نسب قولا إلى الأولياء.. فقال أحد أهل المحفل: "لعَن الله آباء الأولياء إن كانوا يقولون بهذا". فقلت: لا.. بل أباك، لم تكذّب أولياء الله. وجرى ذكرُ الإمام الجوهري فسَبَّه رجلٌ منهم، فغضبتُ عليه وقلت: أتشتم إمام الدنيا في اللغات العربية ولا تخاف من الله تعالى؟" ورأيت كأنّ المذكورَ - أيده الله تعالى - قد أخذ بيدي، وسلِك بي منفردا طريقا مستقيما محفوفا بالأزهار والأشجار، وقال لي: إني قد أردتُ الإقامةَ إما في الشام أو في أمرتسر، فما رأيك في هذا؟ فقلت له: إن رأيي أن تقيم في الشام، فإنها أرض الله ومَعقِل المسلمين، وبها تتأهل وتبني لك بيتًا، وتتخذ

بستانًا وأرضًا، وإن أقمتَ معي في مكاني حيث ذكرتُ لك فإنه أحسن، وأتكفّل لك بجميع ذلك. فقال لي: إن شاء الله أفعل ما أشرتَ به. ورأيت كأن قد جيء برجُلٍ مديد القامة، أصهَبِ الوجه واللحية، في ثياب رثّة وهيئة قبيحة كأنه يراد قتله. ثم هببتُ مِن رقدتي متعجبا من ذلك، وأظنه خيرا وإقبالا للمذكور وأمنًا له من نوائب الزمان. هذا ما رأيته وعبّرته، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

السيد محمد سعيد الشامي